محمد حيدار

الأنفاس الأخيرة

رواية



محمد حيدار

الأنفاس الأخيرة

ــ روايـــــــة ــ

إلى الأسماء المغمورة التي لم يتعـــــــوّد
الخيال الشعبي على رسمها بأحرف بـــارزة

محمد حيدار

مصطلح اليأس لا أؤمن به، رغم أنني في دخيلة نفسي أدرك بمرارة أن القضية أصبح ميئوسا منها، كشأن القضايا التي يبت فيها الزمن سهوا، وبصورة رافضة مقدما لأي استئناف.

الطريقان يتوازيان، يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء والصعوبة، يتداخلان أحيانا، يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة غير متناقضة غير متناهية.

السفر، يبدو مريحا في بعض جوانبه التافهة على الأقل، الرحلة مغرية ما في ذلك شك، بشقائها بكبدها بنصبها، الأمل الشحيح وحده، أجل وحده، يذلل صعابها، يشيع مبرر المواصلة في درب مبركن، في نفس وهنة غير صامدة بطبعها أمام حوادث الابتلاء.

الطريق يتلوى، ينعرج، ينحرف، يتحدب، يتطاول، يختفي، يبرز بوضوح مؤقت كواحد من زواحف الأدغال الإفريقية.

بسرعة يخيل إليّ أحيانا أنها جنونية، التهم كل ما تراءى منه، الهضبات تهتز على جنبات الطريق، ترفض الاستقرار.

تحن إلى التنقل تتداعى، الأودية ذاتها تنحني بمساربها انحناءات خنوعية شبيهة إلى حد كبير بإذعان البشر للبشر.

إلى المرآة الداخلية بدون انقطاع نظراتها مصوبة بشدة، نظرات حيرى مشوبة بالتياع، عدسة تختزن في ما ورائياتها شريطا من الأسرار رهيبا، أسرارا مهربة، والطريقان يتوازيان، يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء والصعوبة، يتداخلان أحيانا نادرة، يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة ابدا متناقضة.

" سرعة جنونية! "

"أمال" لاحظت، أزاحت نصف ردائها عن صدرها، توهُّجُ وجهها مع قطع المصوغات المتناثرة على صدرها، أحدث تجاوبا نورانيا عكست بريقه المرآة الأمامية وعيون مفتوحة في نشداه.

السرعة خففتها دون إذن مني، جوارحي تلقت أمرا مركزيا قابلا للتنفيذ الفوري يرفض التأجيل، في انشداه أبدا على المرآة نظراتها تنزل صواعق، تلثم المرآة، أدخن بشراهة متناهية، أترنم في رطانة مكشوفة لا لشيء سوى لأثبت أني صاحب قضية أصبح مفروغا منها، لم تعد قابلة للاستئناف.

عيونها قمر صناعي، إلى سنوات الذكرى ينقلني بأمانة، أحيانا في شيء من الإجفال تسبل جفونها تتقي التحديق في مشهد فضيع، تغرب عن المرئيات، على المقود كفاي معقودتان في ارتخاء، في ملل، في تذمر باد.

ببطء تتوافد خواطر، في صمت الفيلسوف أجلس، الزمن يرفض القهقري بإصرار، الأحلام تسقط بالتقادم، الواقع بدون تحفظ يؤيد، أما عيونها أما أنا فنحاول الإيغال في ماض يتوثب للفرار، لإحداث شرخ انعكاسي في جدار الزمن المكهرب.

الواقع ليس بالحقيقة إلا بقدر اتحاده بها،

الحقيقة ليست واقعا إلا إذا أذعن هذا لمنطقها.

في صمت علقت، في صمت دائما.

الحب كالحقيقة يقصر عن مطاولة الواقع ولا ينتفي

بغلبته.

" لم أطلب إليك تخفيف السرعة إلى هذا الحد؟! "

أضافت " أمال " وهي تخفف من صرامة أمرها ببسمة عابرة، شيء من الخمول يخيم على ملامحها في هذه الصبيحة، إلى الأعماق كلماتها تسربت، رقيقة، حالمة، ملفوفة بثوب شاعري استحوذ على أحاسيس في حالة فوران.

همسات خفق لها قلب مثقل بجراح الهزيمة أكثر من مرة، استنفرتُ رجلي نزولا عند رغبتها، رغبة الزمن المعتوه.

كلاهما.

يود السرعة الفائقة، ينبذ منطق التباطؤ، لأنه ـ ربما. ربما ـ يفسح مجال التأمل، الذكرى، اشتغال الوجدان.

أعطاف روحي لاتزال تتراقص على تقاطع نبراتها مستهامة واجمة.

"أمال " عقار مملوك، يحمي شرعية امتلاكه الأفراد والمؤسسات على حد سواء، الناس ليس من دأبهم تقصي تعلات المُلك، أسباب تواجده، حسبهم الإقرار صاغرين بحق ملكيته لمن عُثرعليه في حوزته، ولو كان لصا محترفا مسرحا بكفالة.

حالات عقيم لم تخلف إلا صدمات موجعة في نفوس مهيّأة للألم، رؤى تتمدد، أعناق تشرئب، في عناق أبدي موجب، الطريقان يتمازجان، يتّحدان في العمق، يتساويان في تحفظ، يتباطنان أحيانا، يتقاربان شيئا فشيئا ليتعانقا من جديد في صيرورة تبدو لا متناهية تحمل بذور تناقضها.

فكرة وافدة تحمل كل عوامل المؤثر تتردد على شاشة وجدان مضطرب، في تحفظ يتقبلها، في تحفظ يعدل عنها حالتان تتكافآن تكافؤ النصر والهزيمة.

إخماد درب لم يُعرف عنه إلا أنه درب متقد، توهُّم يؤكد مواصلة الدرب بدون طائل، نفسي استجمعت كل شتات قواها لتقدّ للدرب دربا حتى في حالة القبول، فبالسالب والموجب يحدث التفاعل.

تموّجات تصعد نحو جزر قاحلة يهددها هيجان العباب، مواقعها الهشيمية تنذر بالاستسلام أمام حدة الظمأ.

العباب يواصل احتجاجه الغاضب بكل عنف، والظمأ يستمر في صمود مستميت، قد ينفذ العباب، يستحيل بقايا حمأة، دون أن يدين الظمأ باللين.

الظلام يشتد حصاره على الجزر المعزولة، يلتهم الخضرة، يضفي عليها مادة رمادية دكنة كقشعريرة حادة تسري.

ذبذبات الشيخ المصلوب من بعيد تنبعث، تدوي بليل بغداد البهيم، النور المنبعث من أمامية السيارة يبدو خافتا، تأوهات نبض متباطئ ينساب بأرجاء " أثينا " الغافية، بقاياه تحاصر جرعات سم مختمر متقن.

"لكأنك على موعد مع حادث خطير؟!

ردد خليفة.

"ليست لنا رغبة في الانتحار إلى هذا الحد.

سخرت " أمال ".

" إنما نسعى من أجل الوصول."

وكأني أحادث نفسي.

وحول نقطة الوصول كان الدوي والتأوهات وقلوب محمولة جوا، وقاضي القضاة يذاكر درسا في التقادم وأصول الفسخ الأني.

أهـ. القرية تجهش، تبكي بكل غزارة دمع، قبائل مجاورة تعلن الإذن بالنحيب جهارا، برمتها ترتحل في مسيرة صامتة، على ضريح الفقيد تقيم نصبا تذكاريا، في تأبينه تُدبّج عرائض تلهب الدموع في مآقيها.

في كآبة بادية وحزن يتقاطر تتلقى التعازي، وادي خليفة، جبل خليفة، شجرة خليفة، سكينة رهيبة تلفع محيا "أمال "، يغالبها حزن في طلائعه الأولى." بشرى خليفة لم يمت." " نجاته معجزة." " نجّاه بودربالة " (1)

" مات. فقط. فقط. حليم! "

الزغاريد تتعالى، تتجاوب في عناق فضائي بعيد الأفق، الوليمة الكبرى تسع ضواحي القرية، تكفل حاملي التهاني، على الأطفال أطباق الأرغفة وزعت بدون تساو، والشيخ " الغوثي" تأكد من منامه أن الدور تلك الليلة، كان لبودربالة.

"أمال " في الزاوية الأخرى من الرواق البلاطي، تسترق ابتسامات خفيفة عن فرحتها تعبيرا رمزيا.

" سعيد " والأم " مسعودة " ينفردان بممارسة البكاء السري، البكاء المُصادر، ومع ذلك كانا يسهمان في توزيع الأطباق.

سائل متقن يمثل دون أن يترك أثرا للسكر، أو يُحدث ترنحا.

كيف استبد بي؟

على سعة السيارة، ترامي أطراف البراري ضيّقا تستشعره نفسي!

لغيرها لم يتسع قلبي فضاق بها.

أدمنت عليها مرادفا للحب في معادلة عرجاء

حين يُردَّد، تُشتم رائحتها

لقنته تهجئة النبض فصيّرها النبض ذاته

لم تك مادته الفريدة

لأول مرة سأذكره في غيابها.

أمسك بشراعه على الشاكلة ذاتها نحو غائيات أعمق.

أغاير المعادلة على غرار من ماتوا وعلى محياهم

بسمات غير آمرة.

القمر الصناعي يستمر في نقل حقائق ميتة

سكة صدئة عفها الزمن رغم كونها واحدة من الأحجار

الكريمة.

الطريقان أبدا يتوازيان، يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء والصعوبة، يتداخلان أحيانا، يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة جد متناقضة.

بالقرب من فراشي تقف شبه واجمة، نظراتها تعكس تفكيرا عميقا يبدو أنه استأثر باهتمامها، في ماذا عساها تفكر؟ تساءلت وأنا أتمطط، أمطط أطرافي، لازلت في حالة تمدد كعادتي، وقد كاد الضحى يمضي.

أحيانا تستبد بي هذه الحالة إلى ما بعد الزوال، الوالدة تقول في صوت ضارع:" يخيّل إلي أنك قاطعت الدراسة ؟! " أظهرتْ تحفزها لسماع الجواب، بينما أخذت أجمع شتات أنفاسي كأني أنهي جولة سباق طويل من العدو الريفي، وغمغمت كما لو أني أحادث نفسي: " أجل ". وواصلتْ باستدراك ساذج:" لعلك أنهيتها ؟!". رميت بالغطاء جانبا في حركة عجيبة، وقد استضافت شفتاي ابتسامة فاترة:" أنهيتها؟!" ." بحصولك على الشهادة؟". وتراجعت طلائع ثورتي وأنا أقول في قرف:" الشهادة؟ الأحرى بها أن تكون بداية ".

انصرفت الوالدة تزم شفتيها في نوع من الاحتجاج الصامت على هذه الألغاز التي فاتحتها بها، شاعرة بنوع من الهزيمة يفتت محتويات صدرها. الشهادة لم تكن من الأهمية بمكان، فلمَ يصبح حاملها ذا مكانة بين سكان القرية لا تقل شأنا عن مركز " حفظة القرآن"؟، ولمَ تنظم الولائم وتذبح الذبائح احتفاء بها؟ منزل الحاج مالك استحال هودج عرس يوم أن تحصل ابنه على الشهادة، تردد اسمه بين الأوانس، وكان محل إكبار وتقدير.

حقا، إن عجوزا مثلها لم تتح لها الظروف فرصة التعلم، إلا أن هذا لم يحل دون إيمانها العجيب بأهمية المعرفة، سيما بالنسبة لشاب في سني أفسدت الطراوة حياته، وكاد الدلع يقضي على عينات الرجولة في شخصه كما تعتقد.

قهقهت الوالدة لفضاعة ما تلحظ، وهي منهمكة في ترتيب الأواني المنزلية.

يخيل إليه أننا نعيش أيام العز المنهار، حيث كنت سعيدة بتواجد والده، كان في الواقع أسدا ضاريا يقدّ أسباب العيش، على ضآلته وشظفه من صخر صلب، عائلتنا كانت تزداد تألقا يوما بعد يوم في سماء القرية.

أيحسب أن قطعان الماشية، والحقول المثقلة بالحبوب، ما فتئت تحيط بالخيمة في الوادي؟!!

" مريم " ولجت باب المطبخ في هذه الآونة، تلهث من عناء حمل سطل ماء، قالت باسمة: " ما بالك يا أماه؟ ".

"هيه اللي عاش أيشوف "(2)

ورمقتني: " حليم أليس كذلك ؟!"

" ومن غيره ينغص العيش ويقتل الدعة "؟

مريم هزّت كتفيها في لامبالاة معتادة، وهي تؤكد:" ذريه هذا طبعه "

أدرك أني موضوع أحاديث الضحى، الصاخب منها والمونولوج على حد سواء، رغم هذا الإدراك لا أفكر في دخول صراع هامشي من هذا القبيل قوامه الولولة، التوبيخ الشفوي، بيد أن اعتزال الولولة، واللواذ بالصمت المطبق، لا يعني اهتداء إلى حل أو الاستقرارعلى خطة للمواجهة غير العلنية المشوبة ببصيص من المفاجآت السارة.

المفاجأة السارة كشأن المفاجأة المؤلمة، إنما من هبات الواقع الموضوعي، ليست بأي حال نتيجة جهد ذاتي أو عامل داخلي. توقعت ولا أزال.

في غمرة تطاول الانتظار، انعدام الارهاص، أخذت تمخرعباب خلدي خاطرة وافدة غريبة تعلل أحاسيسي هذه بمؤثرات التربية، مترسبات الطراوة المزعومة والدلع المختلق.

" أحقيقة كنت في صغري مدلعا بالمفهوم السلوكي؟ " إنني أشك في ذلك.

الوادي الموالي يدعوني لتخفيف السرعة، و"خليفة " يشعل سيجارة أمريكية، و" أمال " تمتشق مرآتها الصغيرة.

والدتي تضع معايير محددة للرجولة، تريد لي أن أتوفر على جلّها أو تحمّل الطبع كل شذوذ، القنص، الحرث، البذر، الاسترعاء، وإلا فما الرجل دون هذه الخصال أو بعضها ؟!

" ابنة سلطان تنام وقد تقضى الضحى" ؟!!

أحزم خيط حذائي بقوة، أغادر غرفتي في طريقي إلى المطبخ، إنني أتوقع انفجار عبوة لفظية موقوتة فور تصدري عتبة الباب.

" فاق والقى أهله في الزقاق " (3)

على مضض ابتسم متذرعا بالصمت كدأبي أبدا، أحتسي قهوتي دون اضطرار إلى الجلوس، عيناي ترقبان في حذر عواصف الغضب المنعكسة في تناوب على وجه الوالدة، تستأثر بنظراتها المأتمية اليائسة. "هيه. فنجان قهوة بمفرده " ؟! تنهدت، أضافت في استخذاء: "كان الواحد منهم ــ رحمهم الله ــ يأتي على كيس دقيق كاملا في الصباح الباكر لو أتيح له، كانوا أسودا ضواري ".

ولغاية تغيير مجرى الحديث تلعثمت قائلا: " أريد اقتناء بعض الكتب ". وتضاعف تنهدها: " وما الفائدة وقد قاطعت الدراسة ؟! " في عزم أكيد:

" لأستأنفها في المنزل ".

"ودورالأستاذ من يقوم به ؟!"

" الكتاب طبعا "

وضحكت هذه المرة بوهن واستخفاف:" تلك حقيقة قد غابت عن منشئي المدارس !"

" لم تغب عنهم وإلا ما سعوا في توفير الكتاب "

قالت بحدة مخيفة لتفحم ما اعتبره حججا ثابتة: " كل تعليم لا يتوج بشهادة عالية إنما يبقى ضربا آخر من الفراغ، ينبغي إن يُقتل في هضبات القنص، أو بين مروج السنابل، أو على ثغاء الحملان ".

انصرفت في عصبية تلقاء اتجاه مجهول، شوارع القرية تبدو مقفرة تعكس واقع الستينات، الناس فعلا هاهنا موزعون توزيعا مهنيا حسب القطاعات التي تشيد بها والدتي، بين مستزرع بالضواحي، مستزرع بضفاف النهر الغافي، وقناص بأعالي

الجبل المجاور، إلا أنا. شاذ لا يقاس عليه رغم إني واقع قطاع فراغ، قطاع مفترق الطرق، مفترق طريقين يتوازيان، يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء في الصعوبة، يتداخلان أحيانا، يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة صارخة التناقض.

المدرسة، ألام الأولى بأقواسها ذات الشكل الهندسي الدارس، أخذت تطالعني من بعيد وقد تجاوزتُ النهر في طريقي إلى ساحة القرية، ساحة شبه عامة تكوّنها البيادر في فصل الصيف لا يمكن اجتيازها، وقد اكتظت بسنابل القمح والذرة، عماد القرية وميدان تباري رجالها.

فحتى درس المحصول الزراعي، يخيل إلي أنه يثير نوعا من المنافسة بين الأهالي القرويين.

" الحاج مالك فاز بنعمة وافرة هذه السنة".

" نتيجة جده واجتهاده كان لا ينام إلا قليلا ".

" قطع أكثر من عشرين كيسا في درسة واحدة !!"

" بل نتيجة جهد آخرين "

" هيه المال ابن الكلب يشق الطريق في البحر ".

ويسري الخبر بين أحياء القرية وأزقتها، كأمر عسكري غير قابل لأدنى تأجيل، فيجد من العجزة تأوها لأنه ذكرى من زمان قضوه، ولن يعيده الأحفاد مهما حاولوا.

شعور من الخجل يستبد بي، بأوصالي كاللص أتبدى كالمجرم، استثناء نكرة، العيون لا تكتحل برؤياي إلا لماما.

" ابن القرية ومع ذلك ".

" يظهر في صفة الغريب "

" الذي لا يهمه أمرها ".

هكذا قال الشيوخ وهكذا سمعت.

حلقات الشيوخ لا تزال كسابق عهدها، رؤوسا منحنية في اهتمام باد على ألواح لعبة " الضامة " (4)

" كليت ".

"أرجا نأكل ".

" ضامة "

كل شيء يأكل ويخدم الأكل، علقت في قرارتي، قطاع مهني أخر على غرابته، معترف به في قواعد القرية، لكنه نقيض الدراسة يتطلب كبر السن ومستوى من التفكير بلديا، وبخلاف الزراعة يقتضي وهنا عضليا وفتورا.

مدرسة القرية تَمثل أمامي كبقايا مجد منهار، يعز عليّ أن تسقط الظروف انتسابي إليه، إلى تلامذتها رفقاء الطفولة، فناؤها الشاسع، ملعبها الكروي الجانبي كل شيء فيها يغريني بالرجوع اليها، مع إدراكي المسبق أنها أمنية شقي بالعودة إلى رحم والدته.

إيـــه. كم هو سريع الزمن في تغيير أحوال الفرد نحو السلب أحيانا، وكم هو بطيء في محاولة ترميمها من جديد، مد وجزر غير متكافئين باستمرار، أشارف الشيخوخة وإذ فارقت الكتاب نحو المدرسة كبديل موضوعي، ها أنذا أعتزل المدرسة راغما دون عوض.

وشاة تقتحم الطريق، وتحدث العجلات زوبعة رملية في مؤخرة السيارة، كان ضغط الكابح فجائيا، وتأوهت " أمال " وصاح " خليفة ":" أين أنت يا أخي؟ كدت تأتي علينا!". وابتسمت على مضض، والصمت يلفني بعيدا عن " خليفة ".

ذكريات انثنى النسيان مشدوها بكل قواه أمام عظمتها، إنها في الواقع ـ وهذا ما ثبت غير ما مرة ـ أشد منه تأثيرا على القلب، وأبقى استقرارا وتأصلا في خبايا الروح، وطيات الذاكرة المرقّعة المرهقة، لا يوازيها في قوة الرسوخ هذه إلا لحظات أشد قسوة ووحشية، لحظات الفواجع الكبرى.

صلابتها تتجدد، في وقت مضى ولما يتوار، كنت لا أرى فيها سوى أشياء بسيطة ممكن الاحتفاظ ببعضها للذكرى، بيد أنها اليوم تأخذ نصيبا وافرا من تفكيري، وهما أيضا طريقان ....

....

فتحت باب غرفته مع الإشراق، أذهلني مضجعه وهو شاغر، وضعت سبابتي على ثغري وكأنني أتكتم صرخة فجائية. " متى؟ وأنّى خرج؟ "

ليس من دأب "حليم " أن يغادر فراشه قبل الضحى، فما سر إخلاله بالعادة اليوم؟ ما يطمئنني على غيابه، صفاته المعروفة جدا، إنه خال من كل مغامرة رغم كونه معقدا بصورة قطعية، يحمل براءة الطفل وانشداهه مع سهومه المريب، فأي مدعاة تراها أيقظته شبه مبكر، وهو لا يرى في الوجود مدعاة على الإطلاق؟

عدت أدراجي إلى المطبخ ولم أزل في وجوم، انتصبت "مريم "بجواري لا تبدي حراكا، وكأنها تنتظر أمر قائد: " أمي ما بك ". " شقيقك!". " ما به؟". " خرج مبكرا!؟. وتضاحكت " مريم ":" وفيم الانزعاج والجميع قد خرج؟". " الخروج بالنسبة إليه في وقت كهذا بمثابة خرق لحظر التجول".

وقهقهت " مريم " دون أن تجرني إلى مجاراتها كما توقعت، حيرتي لم تطل إني أنظر إليه وقد دلف من باب المطبخ، بوجه قد أعياه ذبول وذوي يساعدهما في التدليل على حجم المعاناة، صمت رهيب، كان في نيتي قبل حين أن انقضى عليه بكلمات نابية، تترك أثارها بينة على نفسيته المضطربة إلا أن مظهره أرغمني على مواراة احتجاجي، فخاطبته بصوت هادئ يمازجه الغضب: " هل لي أن أعرف سبب خروجك مبكرا؟" .

وتتوقف السيارة بمحطة بنزين خاصة، ويترك " خليفة " المذياع على هواه، وأنزل لأتولى أمر تعبئة البنزين.

أخذت أقضم أنمل إبهامي دون أن أنطق، عيناي تتصفحان الأثاث المنزلي وكأنهما تستكثران وجوده على هذه الصورة، أوان، أكواب، أخشاب متفرقة يُنظر إليها كرفوف منظمة، تؤدي مهمة ضرورية في حياة العائلة.

" رفقاء الدراسة كلهم اتقوا شر الظروف، بتوجههم نحو ما يساعدهم على ترميم ما تبقى من حياتهم، الدراسة وحدها هي السبيل الأوحد لصياغتهم أفضل مما هم عليه، وبكثير."

كان يخيل إلى من كان يستمع إلي أني أحادث أحدا، أني أحادث نفسي وبصوت مسموع، وقالت الوالدة وقد أجهشت ببكاء طفولي مؤثر: " وما علاقة ذلك بخروجك مبكرا؟ " .

" كنت في وداعهم "

" نبذتك فئتهم دون أن تفتح لك فئة أخرى ذراعيها "

" أجل ".

وكأنها تخفف مما بي: " ألا تكتفي بما حصلت عليه؟ "

" إنه لا يساوي شيئا "

في لامبالاة مصطنعة: " لا يحزنك أمرهم".

ألوذ بالصمت كموئل مفضل، لولا أنه لا يقوى على وضع حد للتفكير، أمرهم لا يحزنني بقدر ما يحزنني أمري، فهو بالقياس إليه غير محزن بالمرة، جدّي، اجتهادي، آمالي، ذهبت أدراج الرياح وهذا فقط ما يحز في نفسي، ورددت الوالدة في تماد:

" لا يحزنك أمرهم "

" ولكنهم قد يصيرون"

وقاطعتني:" أطباء، مهندسين، وزراء، مميزات لا تكفيهم جهد السعي وراء (الخبزة)"(5)

" خبزة من نوع ثان يا أماه "

أغادر المطبخ نحو غرفة منامي وبدل أن ألجها، جثوت على عتبة الباب واضعا راحة يدي على جبيني، وكأني أتقي اشتداد صداع مؤلم، بتلعثم أردد كلمة الوالدة منذ حين: " نبذتك فئتهم دون أن تفتح لك فئة أخرى ذراعيها".

إن المجتمع ليس قطيعا من الغنم، يكفي في الانتساب إليه أن أكون شاة بصوفها، لكنه فئات قبل أن يكون أفرادا، وما دامت تلك طبيعته التي تكوّنه، فيستحيل أن يستفيد المرء من نزعة الانفراد.

حذاء والدتي ينقر أرضية الممر الحجري المفضي إلى غرفتي، ما أن تراءت لي حتى امتثلت أمامي، قالت لي بحنان هذه المرة:

" دع التفكير جانبا يا حليم "

" وما البديل يا أم؟ "

" ليس منطقيا أن نفكر إلى حد الإرهاق "

قلت وقد تضاعفت حركات رموشي: " أرغب في الالتحاق بهم".

في تنهد طويل النفس: " وأمرنا يا ولدي، شقيقك وشقيقتك وأنا؟ "

شعرت أن كلماتها عزفت نغما مأساويا على أوتار قلبي الكظيم، فترقبت الجواب عن حذر: " وماذا يفيد كم بقائي على هذه الشاكلة؟

وهي تتكلف الابتسام غصبا: " قد تجد شغلا لا تيأس "، وهززت كتفي:

" قد ".

واستطردت بنبرات غير ثائرة: " حقيقة أن العلم في غياب الشهادة

لا يجدي، لكنه مصيرك المحتوم ".

" ومن لي بالكتاب في هذه الحالة؟ "

" قلت لا تيأس "

ليس هناك ما يدعوني لعدم اليأس، فمشاريع العمل التي تعنيها الوالدة أدرك نوعيتها ومحتواها مسبقا، الرعي، الخماسة، ولم لا مادامت تدر (دخلا) مقابل إرهاق، فهي تخدم (الخبزة)، والخبزة فقط هي المطلوب؟

الدبلوم الذي بحوزتي على ضآلة قيمته لا أفتأ استظهره كقذيفة أخيرة في ملك جندي محاصر، إلا أن منظره أصبح يرسم في مخيلتي سلسلة رهيبة من التساؤلات المحيرة.

ما قيمة مفعوله في تغيير أوضاعي؟ أهو معول كاف لشق جبال الظروف المحدقة بي؟ حسبه أن يبقى شراعا مهلهلا قاصرا، لا يساعد على ارتماء في بحر الحياة المضطرب الطامي.

أستاذي القديم ــ أو بالأحرى معلمي ـ نصح لي بالحصول على مجموعة من الكتب قد توسّع معلوماتي، تحسّن مستوى تحصيلي، فالكتاب كما يصفه استاذي هذا، هو الأخر أستاذ مقروء، وقد يكون أكثر أهمية، لأنه ليس في استطاعة كل أستاذ أن يؤلف كتابا، إذن فالمحظوظون كما أكد استاذي فعلا هم فقط المؤلفون، وهنا يأتي الفرق الموضوعي الدقيق القائم بين جمهرة المسموعين من الأساتذة، وصفوة المقروئين منهم. بذلك وبذلك أوصى أستاذي، بذلك وبذلك فقط اتعظت.

تحركت مغادرا المنزل في طريقي إلى حيث لا أدري بالضبط، سأتسلق أدغال الأكمة المجاورة، أقضي يومي بين الصخور الصماء كزعيم مدرسة تأملية، وتراءت لي أبنية القرية من بعيد، يجسد ظاهرها تمايزا وهميا ومفتعلا بين أزقتها، الكل هنا من أجل (الخبزة) ففيم التباين؟!.

بأحضان جبلين عملاقين كانت تقع، يبدوان وكأنهما في هدنة مؤقتة إثر عراك طويل نشب بينهما للاستيلاء على قلبها، قلب القرية الغافية في وقت ما، بقايا الحجارة المتناثرة بينهما تثبت حصول هذه الواقعة.

منزلي يبدو كئيبا وقد انتبذ من بقية الأبنية حيدة واعتزالا، طلاؤه الخارجي اعتصرته استدامة الأنواء، أتربة سقوفه تلاعبت بها أيادي العواصف الثائرة مع قدوم كل ليل.

النهر الوارفة ظلال نخيله، تشهد ضفتاه المعشوشبتان حركة تظهر لمن لم يأتلفها غير عادية، أفواج المزارعين شبيهة في سعيها بالنحل، تسابق الزمن الرافض أبدا للقهقري، تتحدى قلة اهتمامه بكدّها ونصبها المرهقين.

الشيخ " الغوثي" يتجول في أرجاء بستانه الواسع، إنني أدرك أنه يتباهى في قرارته بحصوله هذه السنة على شجيرات التفاح الاسباني، وقد أصبحت لميزتها محور أحاديث القرية:

" لنعتبرها تجربة".

" لن تجد من التربة تجاوبا يساعدها على النماء"

" وإن وجدت اقتسمنا مردودها "

" بدون تساو "

" ها ها ها "

" هيه تفاح إسبانيا يُضرب المثل بجودته "

" لأنه من أصل !!! "

وتنهدت، إسبانيا تاريخ أروع من حاضرهكذا قال " الرندي " (6) في بكائيته، رغم أنه لم يلتفت لجودة تفاحها، لعل عصره لم يكن عصر(خبزة).

تساءلت وقد استطبت التحليق ببصري عبر الضواحي، الأكمة المجاورة تكسو أطرافها كثبان من الرمال الذهبية، فتظهر صخورها العلوية كوجه سيدة زنجية وقد ارتدت شالا أصفر يتدلى طرفاه على منكبيها.

قطعان الماشية متناثرة بأسفل الوادي، تلتهم الأعشاب السامقة بأدغاله الكثيفة الصعبة الاجتياز.

موارد القرية كلها تستشف من ههنا بوضوح تام، من هذا المكان الشاعري الوديع، حقول، قطعان، دكاكين، حتى جمع الشيوخ يتراءى، كما لو كان أصحابه يؤدون نوعا من العبادة غير معروف.

إلا أن المورد الأهم في نظر القرية لايزال في طور الانبعاث، نسبي التواجد، عمال يجدون كلفة وأي كلفة، في وصف أعمالهم بالوظائف، من مخضرمي العهدين ومحدثين بالمرة، من خريجي المدرسة المنحنية الأقواس.

سابقة ألهبت مشاعر الرغبة في الحصول على الدبلوم مفتاح الرزق، والدتي وصفته بنهاية المعرفة، وكظمت غيظي وأنا في سهوم مريب صار لدي دأبا معروفا، صفة طبيعية تمخضت أعراضه عن صمت رهيب تتخلله ولولة صدرية غير مسموعة.

انكفاء كلي إلى الداخل، انصراف عن المرئيات، والأجواء الخارجية، تشبث فطري مقهور بالعزلة، انهماك في التأمل الخالي من كل مضمون فلسفي، كلها كلها تظافرت على تكوين شكل من التحذير الغريزي يتجلى في تعقيد نفسي بليغ، خلاصة فارغة لأحداث مروعة. كذلك أجد تعليله في حسباني.

إن الماضي ـ أيتها القرية الغافية ـ هو الذي أقفل الوصيد بإحكام، وأتصور الحاضر وكأنه هائم على وجهه بحثا عن مفتاح الوصيد، وليس مفتاح الرزق كما نعتته والدتي، ولما تلُح بشائر قرب الحصول عليه بعد.

الشمس أخذت تحزم أمتعتها نحو المغيب، أشعتها تقبّل المنحدر الذي تطأه قدماي وطئا خفيفا، منسابا في طريقي إلى المنزل.

يوما كاملا تقريبا قضيته في خلوة محببة إلى النفس، وابتسمت عجبا وقد تذكرت أنني شبه صائم، فنجان من القهوة بمفرده وانصرفت بسخريات والدتي، تريد لي المسكينة أن آتي على كيس من الدقيق، وما الفائدة؟

إن القضية كما أتصور، وهو تصور طريف في قريتي الغافية، ليست أن آكل بشراهة غول الأساطير، ولكن أن أوفر موردا معيشيا قارا للعائلة.

الباب وجدته نصف مفتوح، في استرخاء ولجت بردهة المنزل قرب حنفية الماء، الوالدة كعادتها تنهمك في تنظيف بعض الأواني المنزلية، ومن خلال الخشخشة القائمة بحظيرة الأنعام، أدركت أن " مريم" تواصل وظيفتها اليومية، فتسهرعلى توفير

حاجيات البقرة الفريدة التي تستقل بالمكان، بعد أن أحيلت النعيجات القلائل على الاسترعاء بالبادية فور انقضاء فصل الربيع.

عيون الوالدة تمسح سحنتي، تنغرز بقوة في ملامحي، في قسماتي كما لو أنها تود النفاذ إلى أعماقي رغبة في معرفة وجهتي مسبقا، ويدها لا تنفلت عن تنظيف الأنية المطاطية: " ألم تعثر بعد على شغل؟".

وفي تنهد: "وأنّى"؟!

" أردت أن أقول ألم ترغب بعد في الحصول على شغل؟ "

وانتفضت: " لم أرغب؟! يا للعجب؟

" وماذا فعلت حتى الان؟ "

" كاتبت مختلف المؤسسات على قلتها."

ودنوت منها وكأنني أزف إليها بشرى: " أخبرني سعيد أنه يحتمل شغور منصب وظيفي بمؤسستهم "

" دعك من أوهام الوظيفة "

وانتابني نوع من الخوف، خشيت مغبة ما تنويه الوالدة:" بلغني أن فريقا من أندادك والأقل منك سنا (تنهدت)، يشد الرحال نحو الشمال للمشاركة في حملة جني العنب.

" وما علاقة ذاك بهذا؟ "

" علاقة عضوية "

وعلت مني ضحكة غير مصطنعة كما توقعت الأم:

" أترين اشتراكي في هذه الحملة أمرا ضروريا؟".

" وما المانع؟ إنه شهر أو بعض شهر، ويعودون بمبالغ محترمة ".

" وفراقكم(ساخرا) هذه المرة؟

" أهون في هذه المرة ".

" لكن الأخيرة كان أهم؟ ".

" إيه المثل يقول:" كم جابوا وليس كم غابوا "(7)

وعادت تستوحي الماضي في قوته وصلابته:" كان رحمه الله أسدا ضاريا يقدّ العيش على ضآلته وشظفه من صخر صلب "، بتوكيد شديد قالتها، وانصرفت نحو المطبخ لتحضيروجبة " حليم " الغذائية، وقد كاد الأصيل ينقضي.

الطريقان أبدا لا يستقيمان، يتطاولان يتساويان في الالتواء والصعوبة، ليمتزجا من جديد في صيرورة شديدة التناقض صارخة التنافر.

وكلما احدودب الطريق، اشتد اهتزاز مقاعد السيارة رغم إحكام المقود.

شعوري بافتقاد القدرة على تناول الطعام، تترجمه منافذ شهيتي المسدودة بإحكام، بفعل قوة تفكيري في المشروع الجديد، بالأمس انصرف فريق من الصحاب نحو الشمال لإتمام الدراسة، اليوم يغادر القرية فريق لا يقل أهمية ولا عددا طلبا للرزق، قواي العقلية لا تؤيد ارتمائي على عمل من هذا القبيل، ليس لمتطلباته ولا لبعد مكانه إنما لمحدودية زمانه، إقبالي عليه إذن مجرد رغبة عاطفية، ناجمة عن رأفة طارئة بإخوتي ووالدتي، السنابل المهملة في حقل قد ديس. وجاء صوت الوالدة: " كان أسدا ضاريا استشهد مخلفا فلذات كبده في أحضاني، دأبت على ان أكون أوفى أم، أوفر حنانا من الوالد الفقيد ذاته، لولا أن الأيام لم تنظر إلي أبدا كوصي على عش فراخ محلوقي الجناح، فاعتبرتني بشرا منصاعا لسنن الفناء وتقاليده، لا يمكن أن يستثنى من عجز الشيخوخة وعوائقها الطبيعية "

وواصل الصوت وقد أجهش هذه المرة: " جسدي النابض بالحيويـــــــة والنشاط الدائب، أخذ مع الزمن يُحدث تجاوبا مؤثرا مع حتميات الوهن البدني الذي لا مفر منه". وتنهدت بعمق دون أن أجيب، فحين تتناول الوالدة أحداث الماضي وحقائقه، لا يمكن لي إلا أن أقتنع وأن أرقّ لحالها.

هذه الوقائع، العادي منها والمستجد، تبعث في نفسي إصرارا ولو كان نسبيا على اقتحام مجاهيل المشروع المطروح، إن الذي في مثل أوضاعي، ليس بمستطاعه أن يتناول الأشياء مختارا، ومادام الأمر كذلك، ففيم العزوف عن العمل وقد لاحت بوادر توفره في أفق، لم ينذر إلى وقت قريب بأية بارقة؟

في هذه الأثناء تتصدر الوالدة بقامتها الفارعة، وسحنتها الأخذة في الذوبان، باب المطبخ تحمل طبق كسكسي يمازجه مرق بلون الدم، وكأنها استعاضت بحمرته القانية عن مادة اللحم كما درجت العادة، وهي تضع الطبق المطاطي بين يدي:

" كلما صادفت أمرا قضيت نهارك مفكرا فيه "

" وما فائدة السعي بدون تفكير؟!

" الأحرى أن تقول، ما فائدة التفكير بدون سعي"

إلى جانبي اعتدلت في جلستها أكثر من ذي قبل، أخذت تربت على جبيني بيدها وهي تقول بمزاح رائق أو أخذ يرق:

" يقال إرض عما تعمل فتعمل ما ترضى"، وأنا أتناول الملعقة دون أن أتأمل الطعام: " لمَ لا ننتظر قليلا عسى أن نجد ما يرضينا؟". وتنهدت حانقة:

" إلى أن تضيع جميع الفرص السانحة!".

" أي فرص؟" .

" اقتطاف العنب في نظري فرصة وأي فرصة "

" في نظرك "

وبلهجة غاضبة نو عاما:

" ومتى كان لأندادك وجهة مستقلة؟ "

" لم تنمُ بعد مع أنها قد تنمو"

" قد "

وقد قذفت الجدار الموالي بالملعقة: " يستحيل أن يصير عنقود العنب كتابا، هذا فقط ما أؤمن به "، وعاودتها تنهيدة مخيفة، لقد أصبحت أخاف تنهيداتها: " ليس السؤال بماذا تؤمن، واقعنا لا يستفتي أحدا يا ولدي"، وأجهشت بالبكاء فبكيت هذه المرة لبكائها.

ودون أن أفكر في استئناف تناول طعامي، أخذتني الخواطر بعيدا إلى عالم التأمل، العنقود والكتاب كما أرى يختلفان ولو اتحدت نهاية كل منهما، أيهما يوجد الأخر.

حكاية البيضة والدجاجة إذن.

الطريقان يتوازيان في العمق، ويتساويان في الالتواء والصعوبة، يتداخلان أحيانا، يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة بالضرورة.

في حركة طافحة بالانفعال هوت يداي على الصحن تحملانه، على أنغام تنهد منبعث من أغوار صدري المثخن بالآهات.

ورددتْ: " كان رحمه الله يأتي على كيس دقيق لو أتيح له ". وانصرف " حليم" مبتسما على مضض، وكأنه سئم ترديد هذه الشعارات الجنائزية العقيمة.

وألحظ ابتسامته العنيدة فيتضاعف حنقي، وأجثو على مقربة من الباب الخارجي لأنخرط في بكاء مسموع، تترامى تقاطيعه الحزينة إلى أسماع " مريم"، فتهرع إلي مغادرة حظيرة الأنعام:

" والدتي ما بك؟ "

" سر شقيقك يعذبني، وصيد مقفل سحيق الغور على صغر سنه، قليل الكلام عميق التفكير، رغم اللامبالاة الطافية على مظهره "

" ذريه إذن هذا طبعه".

" وما فائدة وجوده بيننا وقد رفض الشغل المعروض، قاطع الدراسة، استنكف عن مساعدتنا في مقارعة الخطوب، نسهر على رعاية البقرة دونه، نقتني البضائع في غيابه، تماما كما لو كان غير موجود على الاطلاق؟!! "

" لقد تعودنا منه على ذلك يا أماه، فلم يعد يحزننا أمر وجومه وتهجمه، ورتابته وسكونه الممل ".

" قد نواصل التحمل لولا أن الوضع يتدرج رويدا نحو الهاوية "

" وكـيـف؟!" .

" تكاليف العيش تلتهم مبلغ البستان الذي قذفنا به إلى البيع، أخشى أن يصل الأمر إلى الشويهات فالبقرة "

" ومنحتنا الشهرية؟ "

" لم تعد كافية حتى لتغطية علف البقرة، فضلا عن أن تشكل موردا معيشيا يا ابنتي ".

" قد يعثر " حليم " على شعل؟ "

" بمثل هذا الوجوم يحصل الشغل؟"

" كان عليه أن يتابع دراسته مع رفقائه النازحين عن القرية "

وبلا شعور:

" وأمرنا؟ "

في احتجاج:

" وهل زاد وجوده في تحسين أمرنا شيئا؟ "

في تذمر شديد:

" لست أدري ماذا نصنع، لم يعد القلب يصادق على قيل اللسان أحيانا "

لست أدري كيف يتبادر إلى ذهني في هذه الأثناء أمر " شعبان "، مهبول القرية لعل لقواسم مشتركة تجمع بينه وبين "حليم"، رغم الرزانة المتبداة على هذا الأخير.

طريقان يتوازيان، يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء، في الصعـــــوبة، يتداخلان أحيانا، يفترقان شيئا فشيئا يمتزجان من جديد في صيرورة غير متوافقة.

أربع سنوات تقضت، بانقضائها بلغتُ ربيعي الثامن عشر، قبل أن أحقق أي أمل، كل ما أعتبره جديدا في هذه الفترة الطويلة المنصرمة، انكبابي على ما وصل إلي من كتب، وشبه رضائي عن نفسي أكثر من ذي قبل، لمعاشرة أستاذي الذي تحول صديقا حميما، ولتضلعي النسبي في أحداث التاريخ، والأدب والفلسفة، وتأكدي بفضل الأستاذ الجليل، من أن أطواري ليست بغريبة عن الوجود، فقد مر بشبيهاتها أفراد وجماعات، وحضارات ودول، تعرفها الكتب ويدرك ملابساتها أستاذي.

أه. لقد تناسيت أهم هذه الأحداث في نظر والدتي، زواج شقيقتي" مريم " حدث هام في الوسط العائلي، ولو ارتأيته من منظاري الاعتيادي، هدف كان يستشرفه الخيال لماما، أذكر مقولة الوالدة تعليقا عليه: " أشعر وكأنني أزحت حملا ثقيلا "، وابتسمتُ مداعبا: " لم أك أعرف أن وجود " مريم" كان يثيرك إلى هذا الحد؟!". وترسم بحدقيها براءة صادقة:" كلا يا بني لم أقصد ((البنت في الدار كالحية في الغار)) يجب قتلها قبل أن يستفحل أمرها ". وتضاحكت:

" وشؤون البقرة؟ "

" أهون مما كنت أتوقع "

" أعني أن "مريم " أخذت غصبا!"

" وكيف ؟!"

" لا تزال في الرابعة عشرة صغيرة "

" كأني بك لا تعلم أني زففت إلى والدك، في الثانية عشرة من العمر؟!"

" وهو كم كان عمره؟"

" في مثل سنك تماما."

وأحجمت عن المزيد كفى كفى، إن تشبيهكن تلميح مبيت، رددت في أعماقي غير دار أنها قد لحظت بفراستها سحب إجفال لاحت في أفقي المضطرب، فأصرّت على جس النبض:

" أجل يا ولدي لقد تزوج والدك وسنه في مثل سنك تماما، كـــان في إمكانه أن يتجنب التسرع بحكم كثرة أفراد عائلة والده وقد كنا ضمنها، فحاله كانت أفضل من حالنا بكثير، ومع ذلك أصر على الزواج، هيه جيل كانت المرأة بالنسبة إليه هي كل شيء، وما الحياة في غيابها؟ "

" لندرة ظهورها في الشارع ربما، وفي حقول العمل؟". وضحكت بصدق هذه المرة: " لكم أفسدت الكتبُ تفكيركم ".

" الزواج غير المبكر ضرورة قبل أن يصيرشرعا"

" ليس في الزواج بكرة ولا أصيلا "

أحاديث والدتي أبدا أتصورها دفاعا شرعيا، عن وجهات نظر القرية حتى لكأنها ناطق رسمي باسمها.

بغرابة أتتبع نظرة القرويين إلي، وهي تدور حول نفسها دورانا رتيبا، لا تتبدى منه حركة.

عذري في التواجد دائما منعدم، في أطوار طفولتي كان دراسة وهمية وخاصة لا يقر بجدواها المتعلمون قبل الأميين، في أطوار الشبيبة صار شغلا مفتقدا، إنني استهجن مذاق الحياة في غياب هذين الشرطين، الدراسة والشغل، إلا أنه استهجان لا يرقى إلى درجة نكران التواجد، أو الرغبة في الانتحار فذلك حل جبان.

إنني إلى حد ما، موقن بضآلة مسؤوليتي في تحقيق هذين الهدفين، حسبي أن أتّقد إرادة في الحصول ليهما أو أحدهما على الأقل، أما نيلهما فمن اختصاص العامل الخارجي وحده، منحة مجانية تهبها الظروف لمن تشاء، وإن كنت على يقين من أن الظروف تضعني ضمن قائمتها السوداء.

الأم تنظر إلي برهبة وإشفاق كوثني إلى تمثال معبود، وقد غلب على ظنها، فيما يبدو أن ما يشغل بالي فقط في هذه الآونة إنما هو أمر الزواج وحده، فأحاديث التخاطب تترك رجعها في أغوار النفس البشرية بطبيعتها.

كما لو أنها تباغتني:

" لعلك فكرت في الأمر مليا ؟! "

وقد انعكست آثار المفاجأة على محياي:

" أي أمر؟!"

" أمر الزواج ؟!"

" زواج ؟!!"

كما لو أنها تؤكد أمرا متفقا عليه:

ّ" زواجك؟"

" جريمة أخرى في حقي؟!"

وقهقهت بوهن:

" الزواج جريمة ؟!"

وبإصرار هذه المرة:

" في هذه الحالة أجل "

اعتدلت في جلستها بشكل ينبئ بدخول القضية مرحلة حاسمة:

" بالإضافة إلى أن كثيرين من أندادك قد أصبحوا بحق أرباب أسر، وبعضهم أخذ ينجب، فإن وضعنا يدعوك قبلهم إلى الإقبال على هذا الأمر، بالأمس تزوجت "مريم " واليوم ها أنا ذي قد وهنت، إذ صرت أقبل على أعمال المنزل كنوع من الأشغال الشاقة يا ولدي"

جفوني أسبلها كما لو أني أتقي تشخيص فظاعة منظر متوقع، الماضي أقفل الوصيد بإحكام، إنه لايزال صاحب الأمر والنهي في حاضري، فما هذا الحاضر إلا نتيجة حتمية لفواجعه.

مقاطعة الدراسة، فقدان الشغل، زواج في مثل هذه السن، كلها قرارات حاسمة اتخذها الماضي دون أن يكون للحاضر فيها أدنى استشارة، وسوف يتحرك نيابة عن الماضي وبتفويض منه لاختيار قرينة العمر، فتاة قد لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها كما هو مشاع في قريتي، لم تصل بعد حدّ التفريق بين النوم وأحلام اليقظة.

أه. أيها الماضي رفقا بانقياد الحاضر.

أه. أه. أه. أيها الماضي ....

....

....

" هيـــه، ماذا قلت؟ "

" وماذا يفيد القيل؟ "

" تكلم ولا تخجل "

ماذا عساي أقول؟ فلو أني أعدت على مسامع والدتي، كل ما ورد في الكتب التي قرأتها في هذا الشأن، ما غيّرت رأيها قيد أنملة، فالكتاب يمثل وجهة أخرى مغايرة تماما، وما يُعرض علي باسم القرية شيء أخر مناقض تماما.

طريقان يتوازيان، يتساويان في العمق، في الالتواء، في الصعوبة، ليتدخلا من جديد ثم يفترقان شيئا ما ويصحران في صيرورة متناقضة.

ويقودني هذا إلى التفكير في جدوى تثقيف النفس، ما سر إقبال الناس عليه ما دامت المسلمات وحدها، تتجول في الميدان طلبا للنزال وما من مجيب؟

والكتاب ؟!!

هذا اللغز الذي يُجمع الجميع أو يكاد على تقديسه، ألانه ذو وظيفة هروبية إلى هذا الحد؟

من إذن يقنع من؟

والدتي تحسب الزواج على هذه الشاكلة حلا، جذريا للمعوقات التي أغوص في لججها حتى الذقن، وأتصوره على النقيض من ذلك، حملا ثقيلا أحرى بي أن اتجنبه.

سؤال غريب يجتر بخلدي، والدتي ما بالها تنظر إلى المهمات المستعجلة، كما لو أنها تحتل حيزا ثانويا في اهتمامات العائلة؟ تود لكبريات العوائق أن يتضاعف تراكمها بشكل مفزع، فالحياة ـ كما لاحظ أستاذي ذات مرة ـ أولويات، وتجنب وقوع المشكل وجه من أوجه حله، شعور من الندم أحيانا يدبّ في أوصالي، لماذا حاولت تثقيف نفسي على هذا النحو الفوضوي فعكّرت سليقتها؟!

كان عليّ أن أهمل أمرها، فتعيش على سجيتها الواقع وحده دون مثال تأملي مرهق، قيل إن " أهل العقول في راحة "، والصواب أن المرتاح هو فقط من لا عقل له.

" شعبان" إذن هو عقل القرية ولو أنها مقولة تضحك الأخرين، الأخرين فقط.

قال لي ذات صباح صادقا: " أهبل تعيش". فقلت على الفور:"عِشْ تهبل".

وضعت صينية الشاي أمامها، وأخذت تعبئ الأكواب وكأنها تضرب عن مخاطبتي، وبادرتها مازحا:" لست أدري كيف يروق زواجي على هذه السن، وعلى هذه الصورة؟!"، وتنهدتْ **"خروف الديامان من الربق إيبان"(8)**

" زواج كهذا فعلا ربقة قد تصير خانقة إذا ما تم ". الباب يطرق في هذه الآونة طرقا خفيفا، الوالدة تتأهب لمغادرة قاعة الاستقبال وأي قاعة، أتثاقل في خطاي نحو الباب: "من؟". " أنا سعيد اِفتح ". انتفضت كعصفور بلله قطر مفاجئ، وقد بدت على محياي أمارات البشر: " تفضل تفضل ".

"سعيد" عكسي تماما، متوسط القوام بدين نوعا ما، قد استضاف منذ توظيفه شعرا طويلا، وهنداما معتبرا، وأناقة ميزته عن فتيان القرية.

ما أن استقر به الجلوس على حصير مفروش من صنع بقايا قماش، غالبا ما تميزت به مفروشات القرية، حتى أخذتُ أدعو والدتي لاستقبال زميل الدراسة، ورفيق العمر وصديق المعاناة، وولجت الأم مرحبة كدأبها، إنها تكن لهذا الشاب نوعا خاصا من التقدير، إذ كثيرا ما استحسنت مني زمالتي المتينة له، قال " سعيد" وهو يتناول لفافة من علبة سجائره: " جئتكَ في أمر هام"، وبدت دلائل الاهتمام تغزو وجه الوالدة أكثر منها بالنسبة الي:" خيرا"

" قررتْ مؤسستنا تنظيم مسابقة توظيف.

" والمستوى المشترط؟ "

" الديبلوم، ديبلوم مدرستنا فقط".

" فقط؟"

وضحك " سعيد": " تقول فقط؟، إننا جميعا به موظفون؟

" خشيت أن يكون الزمن قد تطور"

" ليس بعد إنه في انتظارك ". وتدخلت الوالدة: " يعلم الله إني أتفاءل خيرا بلقائك يا سعيد، بالأمس حينما زرتنا كان حصول "حليم " على الشهادة، واليوم ها أنت تزورنا وقد لاحت في الأفق بشائر الأمل".

" ومن لي غير حليم يا خالة مسعودة؟"

" هو الأخر يرى القرية مقفرة بدونك"

انصرفت تريد إحضار صينية الشاي، في حين واصلنا حديثنا:

" عليك بإعداد ملف المشاركة"

" وهل من أمل بعده؟ "

" إنك ابن ش ــ ". وقاطعته: " وما جدوى ذلك؟ حكاية تجاوزها الزمن".

" دعك من التشكيك في سلامة منطق الأشياء يا هذا، مهما ساءت بعض أحوالنا فإنها لم تبلغ الحد الذي تزعم وتتوقع".

" كلماتك باستمرار تزيح غشاوة تلفعت بها عيناي "

" الشغل حق مضمون حتى لأبناء مجرمي الثورة، فما بالك بابن ـــ "

وقاطعتــه: " إنك تخفف من اضطرابي فقط ".

" وأنت، ألستَ تكره أن يعاملك الناس على اعتبار أنك سليل واحد له فضل عليهم؟

" بلى. لست شوفينيا "

" وإذن ؟!"

لم أكن أعرف لماذا تشتد رغبتي في تعريج حديثنا على أمر الزواج، فطرحت القضية عارية بدون مقدمات: "والدتي فاتحتني في أمر الزواج !". وضحك سعيد مطولا: " زواج أي منكما ؟". وعلى مضض ابتسمت:

" أنا، أجل أنا "

" أنت ؟!!"

" أهذه نتيجة طروحاتك في تقويم المجتمع؟"

" أوه. دائما تسفه أرائي، ألم أقل لك إنها هي الفاعلة؟"

" طيب والعروس؟ "

" انتظر الوحي إذن "

"نفسي تحدثني بضرورة التمرد على هذه المشاريع الوهمية يا " سعيد"؟"

" أو ترى التمرد نافعا؟"

" ولم لا؟ دلني يا أخي؟

وبدا على " سعيد " سهوم مريب، هذه المرة لن يمزح إني أعرفه جيدا، وقال: " واجه الآمر هكذا، انتظر فرصة للحديث في الموضوع، وباغتها باسم فتاة ترى الزواج منها مستحيلا، وبذلك يتعثر المشروع فتزول جدواه"

" ومن لي بمثل هذا الاسم؟"

وعاودت " سعيد " ضحكة عالية النبرات، إنه هكذا يضحك لأتفه الأسباب:" زنوبيا. إيفا براون. بالقيس السبأية. زواج على طريقة ألف ليلة وليلة !!" وجماعيا قهقهنا، وقلت: " إني أحيل عليك مهمة اختيارالاسم، وأكدت: " سم يراد بسقراط يا سعيد ". وهنا دوى صوت ضحكه أكثر من ذي قبل، وأخذت أهدئ من استمراره حينما سمعت وقع أقدام الوالدة مقبلة، قالت وهي تضع الصينية بالقرب من " سعيد ":

" اتفقتما فيم أظن؟"

" أجل "

" حليم منذ الآن رهن إشارة منك "

" وإني أيضا رهن إشارة منك أو منه "

" اشكرك يا ولدي".

انفردت بمحادثة الخالة مسعودة دون "حليم"، الذي يخيل إلي أنه غير معني بهذا الحديث اطلاقا، فمي لا يزال بين الحين والأخر يفترعن ابتسامات متقطعة كلما استحضرت قولة حليم: " ((سم يراد بسقراط)).

إنه تشبيه صائب، فالسم أنواع تختلف باختلاف أوضاع متجرعيها، لكنه في جميع الحالات يقضي على واحدة من أخوات الحقيقة، إن لم تكن الحقيقة ذاتها.

بيد أنه كأسلحة الإسقاط يكتفي غالبا بتحقيق نتائج وهمية، فكرت في هذا الأمر، أخذت أصلح ربطة جذائي معتزما الانصراف، والبسمة تعلو شفتي.

أما أنا ففور انصراف سعيد وبقاء حليم جاثما بمكانه، انهمكت في تنظيف الطاولة، وشيّع حليم زميله إلى خارج المنزل كما توقعت.

إن القضية آخذة في الإعراب عن مضامينها، وأجدى بـــ "حليم " لو يرجع توا لبحثها معي من كل جوانبها.

تطاول بي الانتظار، ارتديت ازاري وقد شخصت إلى ساقية الوادي أحمل سطلا كعادتي منذ زواج " مريم "، في طريقي إلى الوادي توقفت كأني أصبت بمغص مفاجئ، يا لبلاهتي! كان عليّ أن أجند " سعيدا" في صفي لإقناع " حليم " بأهمية زواجه المستعجل.

" سعيد ".

هو المعول الفولاذي الذي أشق به تحفظات " حليم " نحو المشروع الجديد، " سعيد " كسعيه في تحقيق الشغل، سيبذل قصارى جهده في إقناع زميله بضرورة الزواج المبكر.

بصيص من الارتياح أخذ يداعب غصن قلبي، فيفتت ما علق به من يأس وقنوط، بقي عليّ فقط أن أعلن اختياري على بنت ترضيني، ونطقتُ كما لو كنت أحادث أحدا بجانبي: " فمن عساها تكون؟"

فتاة قد تبدد وحدتي ووحدة "حليم "، تقضي على سكونه، تحوّل إحجامه

إلى جرأة، وحدته إلى فضول، ولا مبالاته إلى اهتمام زائد بشؤون الأسرة، ستكون كتابا ناطقا يصرفه عن دزينات الأوراق الصامتة المنصّصة، عن نجوى القلم، فوق ذلك ستنهض بمطالب العمل المنزلي فتريح وتستريح.

لكن؟

ذهنية " حليم " تبدو وكأنها لا تعير المرأة كبير اهتمام، بصره مضرب عن النظر إلى فتيات القرية رغم جمال بعضهن الفائق، قلب يحتمل انشغاله في أمور أكثر أهمية، أكثر من كل هذا أنداده يحسنون التودد، ينسجون حبائل الوصال، بعضهم بلغت به (الرجولة) إلى التعدي على الشرف، أما هو فمسالم في كل شيء إلا إذا تعلق الأمر بالكتاب، بالوظيفة، فتزول صفاته ليتحول إلى واحد له مواقفه الصارمة، وآراؤه الثابتة التي لا تتضعضع.

هذه الخواطر تمخر عباب خلدي فتنسيني ثقل السطل، ومواقع أقدامي، إلى أن أجد نفسي وقد فتحت الباب، وولجت المنزل في طريقي إلى المطبخ، "حليم" راعني منظره وقد تسمرت عيناه بين دفتي كتاب، وظهره مسند إلى حائط الممر الضيّق المفضي إلى قاعة منامه، وقال فور أن وقعت عيني عليه: " بشير يزعم أنه يذهب إلى المدرسة كل صباح، وهو ينخرط في اللعب قرب الوادي". انتصبتُ واجمة: " أخذ يتغيب ؟!"

" أجل سوف يرى بعد عودته".

" لا علاقة لك به أنا المسؤولة عنه، فهمت "

" وأنا؟ ما محلي من الاعراب؟ "

" قد تصير بعد أن تقرر مصيرك "

" أه. لازلت قاصرا، هذا أحب إلي"

" ستجبرني يوما على إحراق هذه الكتب التي التهمت دماغك؟

" بل صقلته، أنشأته خلقا جديدا"

" الجميع ينظر إليك على أن بك مسا!"

" وبماذا عساهم يفسرون ظاهرة يجهلونها؟

" وكيف تسمح لنفسك أن تصير ظاهرة غريبة إلى هذا الحد؟ "

" بشير شقيقي ولابد من تأديبه "

وزممت شفتي كأني أجد في السكوت موقفا أعظم من الكلام، إنني لا أرى داعيا لمخاطبته بشكل يثيره، إني أريد أن يتقبل المشروع الجديد، ويقدم على إنجازه بعيدا عن الثورة وعن نشوز المزاج، وبغتة تتابعت رموش عيني: "دعتنا خالتك رحمة

لحضور حفل زفاف ابنتها"، وأضفتُ كأني أقرر حقيقة ثابتة: " أعلم مسبقا أنك راغب عن تلبية هذه الدعوة".

" أجل قررت قطيعة كل جمع يتم بمناسبة زفاف، لقد ترهبنتُ"

" خيرا فعلت".

انصرفت أواري غضبي المفاجئ، وفي أثناء الطريق استحسنت فكرة الاتصال بـ " سعيد "، لدى الباب صادفت الحاجّة " زهراء" والدته، وهي تهم بمغادرة منزلها في طريقها إلى بيت الخطوبة، في عناقنا الطويل نبدو كحبيبين التقيا إثر فراق ذي شجون:

" تفضلي زارتنا بركة"

" أرجو ألا أعطلك"

" أبدا لم يخطر ذلك على بالي".

في قريتنا لا تحتوي البيوتات، حتى ذات الوضع الاجتماعي الحسن منها، على أرائك أو كَراس أو أفرشة وثيرة، كل ما هنالك زرابي قد تنافست في زخرفتها أوانس القرية ونساؤها، الأمر الذي أعطى المفارش المصنوعة من بقايا القماش دورا رئيسا في إظهار الحفاوة بالضيف.

خاطرة مرت بخلدي وقد بدت العجوزان تجلسان في شبه تمدد على المفروش القماشي الصارخ الأصباغ.

" أهلا بخالتي مسعودة "

" كيف حال سعيـــــــد؟"

" بخير والحمد للـــــــــه "

" وحليم؟ ألم يأت معك؟ "

" لقد قاطع أفراح الزيجات كما تعلمين "

" خيرا فعل "

وقالتا بصوت واحد: " عجبا لكما!"

في هذه الأثناء برزت شقيقتي "رقية " تحتضن صينية الشاي كالعادة، وصحنا من أرغفة الخبز المفؤود قد مزجت بسمن النعاج العزيز المنال، وفور أن ارتشفت جرعة طفيفة من كوب الشاي، بادرتني الخالة "مسعودة ": "سعيد".

" نعم يا خالتي"

"جئتك في أمر هام".

وتحركت الحاجة "زهراء" في مجلسها وكأنها تحاول إفساح مجال الحديث، ففهمت عنها العجوز " مسعودة " ذلك، فقالت على الفور: " أقسم أن تشاركنا الحديث يا حاجة؟". اعتدلت والدتي في جلستها بشكل اظهر اهتمامها بما يشغل بال الخالة "مسعودة " أكثر من ذي قبل.

" القضية يا ولدي، كل القضية أن "حليم " قد استعصت قناة انقياده إلى مشروع الزواج، وأنت تدرك ما تكابده واحدة في مثل سن خالتك"، واغرورقت عيناها فسكتت كاظمة غيظها.

من سجائري أشعلت لفافة أخذت أتأمل دخانها، وقد تناثرت بقعه السوداء على أديم الأفق بين حين وحين، آخذ منها نفسا عميقا أو متوسطا حسب مقتضى الحال، ينم عن تقديري لأهمية القضية المطروحة، فلو تعلق الأمر باقتراض مبلغ معين من المال كما توقعت في بادئ الزيارة، إذن لهـــان الأمر أما أن يكون الهدف منها إقناع "حليم" بمشروع كهذا فالأمر جد حساس، قد يستحيل سابقة خطيرة من شأنها أن تنسف الروابط بيننا من أساسها.

إنني أدرك جيدا، وأكثر من غيري نفسية زميلي الحميم ومناحي تفكيره، وقلت في تباطؤ:" حليم في الواقع لا يرفض الزواج بالمرة". وانعكس على وجه الخالة ارتياح عميق:" وكيف؟ إنك دائما مصدر بشائري".

وتنهدتُ: " إلا أنه يطرح القضية بشكل مغاير قد يبدو غريبا نوعا ما! "

وتوارت طلائع بشرها المفاجئ: " وكيف يا ولدي يا سعيد"

" لقد اختار شريكة حياته **((وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان))" (9)**

وأجمعت العجوزان على السؤال صدفة: " ومن هي؟"

" هنا فقط نصل إلى ذروة الخطورة في المشكل ككل "

وقالت الخالة مسعودة: " مادام الأمر متعلقا بواحدة من بنت القرية، أو البدو من حولها فلا أرى خطورة؟!"

وتدخلت والدتي: " المهم في نظري أن الفكرة أخذت تستقر لديه، لكن من الفتاة يا سعيد؟"

" اسمها أيضا غريب عن القرية، إنها تسمى "أمال".

" أمال ؟!!"

" ابنة من؟"

" شيخ من قرية (ـ)"

" ليست من القبيلة إذن؟"

" أجل"

"أمر غريب هذا الذي أسمع". واصلت بعد انقطاع:" لم تقف غرابة أطوار زميلك عند حد معين، وصيتي له أن يرتحل إليها إذا شاء، أما أن ترتحل هي إليه حيث يقيم فكاف كفراق أبدي بيننا". في غضب متناه قالت وهي تغادر مكانها منصرفة، ولدى الباب التفتت إلي وقد انتصبت واجمة:" بلّغه أوامري على جناح السرعة ولا تتلكأ".
فابتسمتُ على مضض، في سخرية لاذعة أضافتْ:" أمال! أي اسم وأي مسمى؟! وخديجة ألم ترقه؟ فتاة يتمناها الجميع".

وقبل أن تختفي الخالة مسعودة، وجهت الحاجة والدتي سؤالا مماثلا إلي:" وأنت؟ قد تأتينا يوما باسم شبيه بهذا الذي نتندر به الآن؟". ورددت في قرارتي المقطع ما قبل الأخير من كلمات الوالدة: "نتندر به عجبا".

وقالت الحاجة زهراء:" مسعودة، أذاهبة منذ الآن إلى بيت "رحمة؟"

" أجل"

" لنذهب سويا"

فرصة ارتأيتها سانحة للشخوص نحو منزل " حليم " لإطلاعه على ما بلغه الأمر من خطورة.

" حليم " كان ينصت بزائد اهتمام إلى حديثي كعادته فهو أذن صاغية إذا ما تعلق الأمر بـ "أمال"، وبها فقط، وخيّل إلي أنني تسرعت في تفجير العبوة الموقوتة قبل

أوانها، " كان عليك أن تتريث، أو تختار اسما غريبا فعلا كما اتفقنا "، وواصل بعد تنهد ممدد: " ليس من السهل على نفسي أن تصير "أمال" محل تندر في أحاديث العجائز"

" حليم؟"

"ماذا أيضا؟"

" ارتأيت أن هذا الاسم يؤدي غايتين اثنتين في آن واحد، فهو يصرف عنك أمر الزواج المبكر، وإن كان لا مندوحة منه فـ " أمال " على أية حال فتاة تحبها منذ صغرك "

" أخاف أن تجتهد النسوة في تعكير الجو بيننا، وعلاقتي بها لم تصل حدا من المناعة يقيها خطر التصدع كما ترى؟"

وابتسمت مشفقا عليه: " أتفتعل علاقة بها؟!!!؟

" أه نسيت أنني بحضرة " فولتير" (10)، سأقول معرفتي بها يا سيدي"

وأتنهد تنهدي المعهود:" يرفضنها لمجرد أنها لا تنتمي إلى القبيلة؟ جاهلية أخرى يا سعيد".

وواصلتُ:" ربما أخطر من تلك التي عاشها غيرنا يا سعيد، الفارق الوحيد أنهم تقبلوها بإجماع عكس قلة منا تحارب طقوسها، وقد لا يحالفها النجاح".

واستطردت دون أن أنتظر كلمة من صاحبي:" حتى وثائق الأحوال الشخصية كانت تعتمد القبيلة تنظيما رسميا تمنعه قوة القانون من الانهيار، هذا هو سر الفاجعة، فالتاريخ لم يعرف للنظام القبلي فضلا إلا في أسوأ عصوره المظلمة"

سهوم مشترك يغمرنا تماما كما لو كنا في خلوة نتعبد، وينسحب تفكيري على شبح خديجة بدل طيف أمال، فأتأمل الفوارق القائمة بين الرغبتين، أو بالأحرى بين الرغبة الجامحة والإحجام الشديد، طريقان يتوازيان، يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء، في الصعوبة، يتداخلان أحيانا يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة.

" كل شيء يا سعيد يُملى عليّ بشكل رهيب، غير قابل للاعتراض، أمر يزعزع ثقتي في التواجد، فلكي أتواجد لا يمكن أن يجرجرني الفراغ الرهيب إلى حيث يشاء، دون أدنى اعتراف منه بوجهتي، فإن قلت أتعلم، قال في غير مدرسة، وإن قلت أشتغل قال

في قطف العنب، وإذا قلت أحب، قال دونك " خديجة " وليس " أمال"، لمَ كل هذه المفارقات في حياتي يا سعيد؟!"

ما يفزعني فعلا أن الفراغ هو الذي يحدد مواقع أقدامي بصورة استبدادية، ممتلكاتي المادية هي المعيار المعترف به لقياس أهميتي في الوجود، أحيانا أعطي حدة الفراغ مبررات واهية من عنديّتي، فأسميه قدرا أو حظا أو طالعا، وما هو في حقيقة الآمر إلا فراغ، بل عدم غير قابل للترخيم، يتحكم في بدل أن أتحكم فيه، يقودني عوض أن أمسك بزمامه بكلتا يدي.

الأمثلة التي تسوقها الوالدة معذورة، كقواعد منطقية مقررة في الحياة، أيضا من صنع الفراغ غداة غلبته، أملاها على ضحاياه كعبارات التعازي، فتقبلوها صاغرين، بل شاكرين.

ويجهض خواطري دخول الوالدة وهي تبدو مغتمة، ولا تريد في هذه المرة أن تخفي غيضها، وينصرف " سعيد " مودعا دون أن يلاقي ترحابا معهودا من طرفها، إنها تود أن تختلي بي فيما يبدو لكي تفجر غضبها غير المتناهي، وبدون مقدمات قالت وهي تأخذ مكانا قريبا من باب الغرفة: " ما هذه الأسماء الغريبة التي ابتدعتها؟!"

وأجبت في تجاهل: " أية أسماء؟"

" أعني آمالــ ك! " وتضاحكت:

" إنما ابتدعه الذين أسموها كذلك". ودخل الجدل طورا حادا:

" ابتدعوها ليسيلوا لعاب المغفلين من أمثالك "

" كفى كفى، أرجوك كفى تقليلا من شأني"

وتضاحكتْ: " شأن؟! وأي شأن تتحدث عنه؟"

" عيبها فيما أعلم أنها لا تنتمي إلى قبيلتنا؟ "

" يقول المثل: ابنِ من طينك يصدق"، يا حليم أخيرا باض حمامك فاخترت ابنة الخُس"(11)

كل الأمثال تؤيد مواقفها، ليس هناك مثل واحد يخدم آرائي، وقاطعتْ تفكيري: " كان أسد ضاريا لم يسبق له ولأبناء عمره أن رفضوا فتاة، كيف يرفضون والمرأة أغلى ما يتمنون؟"

" كانوا يا أمي".

في غير ترو سارعت إلى القول، فانتصبت متأوهة:" تقول كانوا؟!!!"

" وماذا عساي أقول بشأنهم؟"

" اِعتقد ما اِعتقدوه جديرا بالاعتقاد "

" ظروف كل منا تختلف".

" أساس اختلافها التبجح بالمعرفة على ضحالتها"

طريقان يختلفان، يتوازيان في العمق، في الالتواء، في الصعوبة، يتداخلان أحيانا ليفترقا من جديد في صيرورة جد متناقضة.

ليس في حوزة الوجود قالب ثان يصيغني فيه، بصورة استشعر فيها تفردي عن بقية مبتدعاته، ومادام الأمر كذلك عجزا صارخا، فعلي أن أرفض مسبقا، وبالمرة كل شكل يوهب إلي على اعتبار أنه إحدى صفاتي.

في هذه الحال، ومنذ بداية البحث عن بديل مستساغ، ينتابني نوع من الاغتراب النفسي القاتل، يعبرعن حدته في صيغة حزن عميق، أتبدّى معه وكأنني ملّكته زمام نفسي حيث يشاء.

لكن؟!

غالبا ما بقي تمردي في حدود الشعور المكبوت، الذي يمخر عباب نفسي الوهنة حتى دون أن يخلف أثارا على تقلبات قسماتي، فيخيّل لمن يطالعني أنني أكثر من عادي.

وقد تصير الرغبة الكامنة في صدري رذاذا، متطايرا فور التحامها بأول موقف يجابهني، لأن الموقف ـ مهما تضاءل حجمه ـ لا يفد إلي وقد تجرّد من جميع مغريات النفاذ، ومبررات القبول، على النقيض تماما من الرغبة العزلاء التي أكابدها أحيانا، وهي تحمل بين تضاعيف حدّتها وعنفها، قابليتها للتلاشي والذوبان.

كلّ شيء فيّ ينذر بالانفجار، رغم هذا تبقى الحقيقة المؤكدة أنه من المستبعد أن أنفجر، حتى الموت سيأخذ طريقه إلى نبضي رتيبا معتادا مملا، وكأن السكون قاسم مشترك بين حياتي وفنائي، مادام كلاهما لا يحمل بذور الانفجار ولو بقدر غير محسوس.

إن القلب البشري حين تأخذ ممارساته شكل الديمومة، يحمل كل خصائص الفدائي المعبّأ بقضية ما، ومن ثمة فهو لا يعود بسهولة إلى قواعده سالما.

رغباته تتجذر لتطمى على الآتي المتجسّد، الممكن المعقول المثير القابل للنهاية، وكل ذي برج استهلاكي.

بكل بساطة فإن القلب حين يصل إلى هذا الحد يعتاد عملية الطرح.

"خديجة"، هذا الممكن، عيناي تتسمران في جفال على قامتها منذ أن زُجّ بها إلي حيث أقيم في جو من الزغاريد، ورنّات البارود المدوية، قد تبارى في تقوية طلقاتها شباب قريتنا يتقدمهم "خليفة" ببندقية الصيد آخر طراز.

وبدون قيد تسرح خواطري عبر أنغام الزرنة، المنبعثة من لدن جمع الفتيان، انتشاء الفرح البهيج أضفى على مجلسهم هدوءا بيّنا، ويسود اعتقاد راسخ أنني أكثرهم أخذا بأسباب المسرة، فأنا المعني بهذا الزفاف الذي سيقت إليه واحدة من نجوم الحي، ولأنني دخلت عالم اللذات بتأشيرة دامغة و.

ينفرج الطريقان كالعادة والعادة دائما.

إنني الوحيد الذي يبدو ممتعضا، ينهمك في تقدير الظرف العصيب الذي يجتازه صديقه، "حليم" لا يستشف الأمور من منافذها المعتادة، لذلك أراه المسكين يتعذب.

ويستمر الطريقان في التناقض واللاتناهي.

يخيل إلي أن مظاهر الفرح، إنما هي مراسم جنائزية قد اصطبغت برتوش مرغوب فيها، وإلا ما الفرق الموضوعي مادام المرء في الاثنتين مجبرا؟

" سعيد؟ ما بك ساهما؟ "

" قد تثير المناسبة عواطفه الدفينة!" هههههههه (جماعيا يضحكون).

" واحد في وضعيته لا يرتكز على أدنى سبب للبقاء عازبا!" هههههههه

" يريد دخيلة على الحي!" هاهاها

" تلك كانت رغبة حليم قبل أن يستسلم لفتاة الحي آخر المطاف"

انتفضتُ وددتُ لهذا النقيق أن ينتهي، مع ذلك واصلت سكوني، فمهما يكن من أمر فأنا العريس وهم الضيوف: " أجاد أنت في قلقك يا سعيد"؟

وهززت رأسي كاتما تنهيدة عاصفة: " أبدا، زواج "حليم" أعظم مناسبة في حياتي" وبإجماع شبه تام:" هذا ما توقعناه ".

أصوات جماعية تلتقطها الأذان من وراء الجدران، لا يشك أحد في أنها تصاحب رقصات على إيقاع الدفوف، يقوم بها صفان متقابلان من النسوة، وهن يرددن في توافق إيقاعي تام: **"قولوا لفرنسا اتسلّم، جيش التحرير ما أطّيقيش عليه "**(12) وانصرفت مقذوفا بزغرودة تخترق الأفق البهيم، ميّزت " نعيمة" رجعها بإيقاع خاص ضمنته إشارة ما.

"برّح بالجاب والجبجاب والطيبة فالصواب، هذي تبريحة من عند (خونا) " قدور" فارس الخيّالة"

" برّح من عند مسلك الأيام والليالي"

" برّح من عند المغطّي راسو اللي ما يعرفوه غير ناسو "

" هذي في خاطر حايك المرمّا"

....

....

وفي دخيلة نفسي حاولت تفسيرا لكلمتي " الجاب " و" الجبجاب"، وقررت في الأخير أن استفتي أستاذي إذا ما لاقتنا الصدف، والصدف دائما.

بذلة شبه أنيقة طبعت مظهري بمزيد من المهابة والوقار المفتعلين، ولم يفت الجمع الشباني أنني غير رائق المزاج، وأن وجومي قد ارتسم فيما يبدو، بشكل أوضح من ذي قبل، يضاعف منه إمعاني في الإطراق وقد خلوت بـ " سعيد " في همس غير مسموع.

" من حسن الحظ أنك أقبلت "

" ولمَ؟ "

" كدت أنفجر، من عساي أصارح بهذه المكبوتات الغريبة؟"

نفسا طويلا أخذته من سيجارة أتناولها لأول مرة:

"أزمة الإنسان لا تتعاظم بحق إلا حين يصبح في نظر الأخرين غريب الأطوار". وأكمل "سعيد ":

"والاغتراب لا وزن لثقله المأساوي إلا إذا كان ذا طابع فكري"

دخاني أنفثه في الفضاء ليشاطرني أحزاني: " ملزمون باستمرار على الظهور في غير حقيقتنا يا سعيد؟!".

اهتمام " سعيد" المتزايد بالزغاريد وهي تترى، يجبرني على إعطاء نفسي حق تحليل عمق ذبذباتها الصوتية، دلالتها، عمقها الايقاعي، هذه "رقية "، " مريم "،" نعيمة" و"رقية " في آن واحد.

ودّعتُ زميلي وبقية الرفاق عائدا إلى مثواي، أجرجر رجليّ، تتناوشني خواطر وافدة من كل أفاق، العروس لاتزال على الوضع الذي تركتها عليه، ملفوفة في أثواب بيضاء ناصعة، إلا أنها تبدو مبللة الجفون هذه المرة، ما الذي حدث؟ لكأنها تشعر بتحطّم سياج مفاتنها على صدر، يرى التزلف منها ضربا من النفاق العاطفي فحسب.

تناهيد موجعة تبعث بها تعبيرا صامتا عن وجومها المريب، استدلالا على الحيرة الخانقة التي تمسك بعنف، على تلابيب صدرها.

علامات الطريق تفيد: ((التزموا أقصى اليمين))، أخرى: ((التزموا أقصى اليسار)) ؟؟!! والسيارة تنهب الأرض، وشخير " خليفة " يتعالى بجانبي، وكان في التناوب بين جنبات الطريق نزولا عند رغبة العلامات المتناقضة، صعوبة وأية صعوبة.

" سي خليفة، سي خليفة، موعد نشرة الأخبار"

" أمّه، دع السياسة لأهلها وذرني أنم". وأضاف متمتما:

" أعرف أنك سياسي أكثر من اللازم لكن دعني أنم"

أبدا لم يطرق خلدي أنني سأواجه موقفا في مثل هذه الصعوبة والدقة، غلب على ظني أن العريس ينتظرني بصبر فارغ كما درجت العادة، مع انعدام سابقة موجبة لذلك، أما أن يتجاوز الأمر برودة اللقاء إلى ما يشبه الاستياء والقنوط، فأمر لا يوصف إلا كونه غريبا.

الشاب فعلا وسيم، مقبول الشكل، تماما كما تطايرت أوصافه، أما محتواه فلغز محيّر.

رجفة عنيفة تعتريني، تسري في عنف التيار الجارف في قنوات أوصالي في هذه اللحظات، فتاة خجول بطبيعتي، لم تعتد مقابلة أناس غرباء عن حيّها، فللقبيلة أيضا

أحياء تشكل مسارب باطنية للعلاقات المشروعة، وإلا أصبحت الحياة فوضي عارمة !! كما قال جدّي، وردد باستمرار.

ويستيقظ "خليفة"، يتناول لفافة من علبة سجائره الأمريكية، ويتطلع إلى الأفق المظلم، ثم يلتفت نحو "أمال"، وهي تغط في سبات عميق، صار الطريق محدودبا كما لو أنه غير معبّد على الإطلاق، مما اضطرني إلى تخفيف السرعة، وفتح "خليفة " زر المذياع ليصادف المذيع ينقل تفاصيل إخفاق المفاوضات حول تخفيف الأسلحة النووية في أوربا، فسارع إلى إغلاقه وهو يعلق:

" كلها قضايا مستهلكة".

أتظاهر بتناول كتاب ملقى إلى جانبي، إلا إني في الواقع أخمن وجهة الفتاة، أسحب سؤالا أراه ذا أهمية، في ماذا عساها تفكر؟ لاريب أنها تحتج في دخيلتها على موقفي منها، تستنكر ـ وحُق لها ـ تحفظي، تجاهلي الخواطر العاصفة بوجدانها، أتراها تعرف " أمال "؟! أو على علم بأمرها؟

المسكينة قد يشغل بالها الاسم قبل المسمى، تماما كما هو الحال عند الوالدة، هذه التي تخال الوضع قد استقر بشكل انعدمت فيه بوادر الانفصام.

ورددتُ كلمة " سعيد" لمنطقيتها، لقد تفوّه بها وكأنه يرسم واحدة من ثوابت الحقائق، " الاغتراب لا وزن لثقله المأساوي إلا إذا كان ذا طابع فكري".

ما أتفه حاجات الجسد أمام تأزم الوجدان الثائر، إنها كملذات الترف في نظر الفكر الثوري !!

والطريقان غير متوازيين، يختلفان في العمق، في الالتواء، في الصعوبة أحيانا، يفترقان باستمرار ليمتزجا من جديد في صيرورة صارخة التناقض.

هذه العبارات رددتها في دخيلتي، وطويت الكتاب وقد هجعت أنغام الزرنة، وغزا الفرح فتور، وألفيت زوجي وقد نامت على ضنكها، فأخذت أوقظها بصوت خافت

....

....

....

ولحظت "مريم" في باكر الصباح مسرورة، أن تجد كل شيء قد تم بصورة طبيعية، معهودة في كل زفاف، فدوت زغردتها وكأنها تبدد كل ارتياب جاثم على جنبات

المنزل الوديع، الذي تجاوبت ببهوه الزغاريد لتثبت لي أن الناس، كل الناس، ليلتها تلك باتت تترقب ما يسفر عنه اللقاء اللغز.

وتترى الخواطر رتيبة مملة وامضة، إن عالمي الداخلي هو فقط الذي يبدو وكأنني أتوفر على صلاحية التصرف في توجيهه، على أن أفقد قدرة هذا التوجيه كلما أخذ في التأزم، أما العالم الخارجي فيهمه مني فحسب، أن أتحرك ضمن دائرة مسلم بها لديه.

في قرارتي علّقت ثانية، " أجل ملزمون على الظهور في غير حقيقتنا".

فلو أني أبديت أدنى بصيص من حقيقتي، ما كانت " مريم " لتزغرد، لذلك مجبرون نحن وباستمرار، على تقمص أشكال التجاوب مع قوالب العالم الخارجي.

يتطاول الطريق، يمتد لا يأبه لكل مقاييس السرعة التي حطمناها في رحلتنا، " خليفة" قرر أن نتناول طعام العشاء هذه المرة في مطعم، يقع بخارج البلدة التي نحن بصدد اللحاق بها، قرر أيضا أن أحمل طعام " أمال " إليها بالسيارة دون أن تدخل المطعم، فمهما يكن من أمر، فالقواعد السلوكية لا يمكن المساس بها.

"حليم" استرعى انتباهي وكأنه يتمتم بألفاظ غريبة، أهو مجنون حقا؟

رابضة كنت إلى جواره، لقد ارتحت لزوال الكلفة بيننا تدريجيا، إن واحدة في مثل وضعيتي لا تطمح إلا إلى الألفة، وما دام كل ذلك طموحها فلمَ إذن تضيق بها الحياة؟

حقيقة أن مبدئيات التلاقي خلفت في نفسي، في ذهني، تنبؤا بإرهاص علاقات غير طبيعية بيني وبين "حليم"، لكنني اطمئن فقط إلى مقدرتي على التضحية بسلامة التواصل الباطني، مقابل وفاق مفتعل يُضفَى على المظهر الخارجي للترابط الوهن، على الزواج فأنا الزوجة وليفكر فيمن شاء.

إن نزف الأمعاء على ما ينجم عنه من ألم، أهون خطرا على نفسية المصاب من إصابته بقذيفة تؤدي بأحد أطرافه، حتى ولو كان الفرق بين الإصابتين، أن إحداهما من صنع خارجي مباشر عكس الأخرى.

وقبل أن أغادر السيارة ابتسمت "أمال" في وجهي، أو في وجه الأفق البعيد، فكلانا بعيد، الابتسام الآمر طلائع غزو، فطلائع الغزو غالبا ما اصطحبت الابتسام، " يوليوس قيصر " دوّخ معاقل الشرق لمجرد أنه أتقن فن الابتسام المغري في وجه حسناواته.

وينتابني في أحيان غير كثيرة، شعور بالرهبة، كذلك الذي يسبق أقصى حالات الاستعداد لاستقبال أية معجزة نفسية، فينقض على الخلد سؤال، أتصبح " أمال " بكل هالتها مجرد جملة اعتراضية في حياتي، قد يستغنى عنها النص ذات يوم ؟!.

الظروف وحدها ستقرر هذا، فهي بمفردها المتوفرة على صلاحية الإقرار والإلغاء، وهما لديها سيان.

إن الصامدين حقا، الأكثر منا معرفة بالخنادق الطبيعية للصمود، هم فقط من يقاتلون الظروف وبلا رحمة، والظروف ليست منتجات تلقائية أوجدتها الحياة كأشياء للتسلية، إنها فقط ما اصطنعه الأخرون من طفيليات باسم الحياة، وفي غيابها كما أكد أستاذي.

أستاذي الكهل لم يبح بمكنوناته إلا في أضيق نطاق، لاعتبار أن اليأس أعظم حقيقة يمكن اللجوء إليها كتعزية في حالة الإخفاق، وهذا فقط ما أخالفه فيه.

الأيام. كدأبها تتوالى رتيبة في نظري، وكأن شيئا لم يحدث، فليس الجديد في حياتي أن أصير زوجا لواحدة اقتيدت إلي في صورة السبي الضارعة، أو أخرى أحببتها من أعمق الأعماق، بل إن الجديد، ما أنتظره، إنما على غرار وافد مجهول، حلم يكابد تجسيمه الخيال دون أن يحدد ماهيته.

والطموح حين يفقد إرهاص التحقيق، يصير بدوره ولادة مرتقبة من غير أعراض حمل.

ما يثيرني حقا أنه بقدر ما يتنامى إدراكي لثقل المعاناة، بقدر ما تتحول هذه المعاناة ضئيلة منتقصة في نظر والدتي، وانطباع الوالدة المحترمة قد لا يتضمن كل هذا الإيلام الممض، لو لم تكن لسان حال قريتنا.

الباب يُطرق، فتنهي طرقاته سهومي إنهاء مؤقتا، وتخف " خديجة " لفتحه فيبرز وجه " سعيد " محتفظا بغلالة من الحزن، أو ما يشبه الحزن كادت تتلفع بها عيناه، وقد أخذتا تتفرسان في وجه "خديجة " الواجمة:

" صباح الخير"

" صباح الخير"

" حليم موجود"

" إنه في انتظارك تفضل "

فور اللقاء تنقشع سحابة كل منا، لا لشيء سوى لأن ثورة الوجدان البشري تهدأ إذا ما واجهه وجدان ثان، تربطه به نوعية المعاناة.

" إيــه حليم كيف حال الكون؟"

" تزداد تكهربا كما ترى "

" ولـــمَ؟"

" كأنك لا تدري وتسألني دع السؤال للأخرين "

" حليم، لقد ضاعت الوظيفة يا أخي"

" الوظيفة؟!"

" وكيف؟"

" تم تعيين موظف غيرك، بذلت قصارى الجهد، أكدت أنه ابن(..؟)، وله الأسبقية."

" ليتك ما تفوهت بها يا أخي"

" لكنها؟!"

" لكنها ماذا؟!عنوان البطالة في عرف حاج عامر".

" هذه مبالغة، وفيم التأنيب وقد قمتُ بواجبي نحوك؟"

" معذرة، شدة الصدمة أثارت انفعالي المكبوت "

الحلم في أحوال كهذه يتمطط، يتصلب، يتحوصل في نتيجة عقيم، أشلاؤه الضبابية تتناثر، يتهاوى إلى الحضيض دفعة واحدة، ينتفض وقد تحول إلى ذرة ضئيلة، يتنامى من جديد، يتجذر، تبرعم أزاهيره لتأخذ ثانية في الذوبان.

الشغل، الزواج ليسا تعبيرين ماديين لحلمي، إنهما مجرد تباسيط له فحسب، انتقاص، فهما يتحققان وتحقيق الحلم قضاء عليه، الحلم شيء محبب إلى النفس يزيد في تعلقه بها جهلها لحقيقته، وقوة اعتقادها باستحالة الوصول إليه، فالقصور عن التواصل إحقاق يميط زيف الانتفاء.

" لم تحدثني عن البديل؟"

" واحد أكبر سنا وأدنى مستوى"

" وليس في مثل أوضاعي بطبيعة الحال؟"

"لقد وجدتها دونما عناء"

" ابن كريمة، فيم اعتقد؟"

وقهقهتُ في تعب:"وشقيق كرائم"

وهزّ رأسه أن نعم. "سعيد" قطّب جبينه وزم شفتيه كما لو أنه أضرب عن الحديث، فقلت: " تعني مراد؟" وهز رأسه أن نعم.

أضغط على الكابح بقوة مخيفة، ويفترق الطريقان بين معبدة وحجرية خشنة، أي الطريقين أجدى بالانتهاج؟

في قريتي الغافية تُغتال العفة في المهد ويطعن النقاء، أحقا ستأخذ الأنفاس النوفمبرية في الهجرة؟ منذ هذا الغروب، "شعبان" كثر ترديده لهذه الأسئلة وأخرى مشابهة، في غضون هذه الأيام " شعبان " كأرصاد الجو يسابق الأحداث، كان حانقا لسبب ما.

نفسا طويلا من سيجارتي تناولته، وسحبت الدخان مصحوبا بتنهيدة مسموعة، لقد أذهلني في حقيقة الأمر ما طرأ على محيا " سعيد" من تغير مريب، " سعيد" لا ذنب له ما دام ساعيا، وكأنه يردد:

:" لا تيأس، سأحاول"

" في هذه القضية بالذات لا يراودني أدنى يأس، كفى يأسا في غيرها يا سعيد"

" أكثر أهمية"

وزفرت: " أمال مثلا."

" أوعدنا إلى ذكرها ثانية؟"

" أتتساءل حقا؟ وما الذي عساه يثنيني عن التفكير فيها، ما دمت أعيش فراغا كالذي ترى؟!"

" فعلا، فعلا"

"أمال" أقرب تأويل إلى الحلم وإن لم تكنه، فهو ليس شيئا مجسما محددا، ليس مجموعة من الأشياء المترابطة أو المتفرقة، وإن يكن كذلك، فقوامه مبهم في غاية الإبهام واللبس،

لكن لمَ لا تكونه ما دامت رغبة لا تتحقق؟ رغم هذه الخاصية فإنها تبقى جزءا مصغّرا منه. أيضا لا يمكن أن تستحيل جزءا ضئيلا في صرحه الشامخ، فهو مجموعة من الغايات المتناهية.

و"أمال" لا ترقى إلى مصاف الغاية، إن الزواج، والشغل، والدراسة، وسائل هادفة إلى تحقيق أشباه غايات.

إن كل شيء يفقد صفة الاعتياد هو فقط الخليق بنعت الغاية، الحلـــــم، الوظيفة، "أمال"، الدراسة، كومة من المستحيلات في نظري، مع ذلك لا تحمل قاسم الانتماء إلى الغاية طالما أنها ذات قابلية للاعتياد.

وبين الوسيلة والحلم والغاية، يتشعب الطريقان، يأخذان في الالتواء، في الصعوبة، يتباطنان أحيانا، ليفترقا من جديد ويتوازيان في صيرورة جد متباينة.

ولجتُ الغرفة وقد شددت جبيني الملتهب بعصابة مزركشة اللون، أعاني صداعا تتكشف حدته مع أنين موجع يثير القلق، وبادرني " سعيد" قائما:

" صباح الخير خالتي مسعودة"

" صباح الخير"

مذ زواج "حليم" استحال مزاجي أكثر رقة، حقا لقد خاب ظني في " سعيد" مذ واجهني بمهزلة " أمال"، حسبته واحدا من النافخين في كير "حليم" المعادي للقيم، لكن يبدو أنه توغل في الموضوع عن حسن نية.

" الشاي يا خديجة"

" جاهز يا **لالة** "(13)

تصور لو أن "أمال" حلت محل "خديجة" إذن، لكان الجواب على غيرهذه الصيغة الجاهزة الشاذة، "كجاهز يا خالة، أو يا عمة، أو جاهز فقط"، في دخيلتي دون أن أنبس علقت.

رؤى الإنسان إلى الحياة تتجدد من خلال تناوله أشياءها البسيطة، فمن هذه الرؤى يتوغل في عالمها المعقّد، وكلمة " لالة" هذه التي تقذف بها "خديجة" على سجيتها في غير ترو، وبشيء من الانضباط النفسي الباعث على المكابرة في نفس المتلقي، إنما هي محصّلة نزعة مكرسة لم تُعدم قوة التيار الفلسفي الراسخ.

وأجهض خاطرتي سؤال وجهته والدتي إلى " سعيد"، وأنينها يشل النبرات الصوتية:

" ما خطب الوظيفة يا سعيد؟"

" في الإمكان"

" ستوفقان إن شاء الله"

حسن ظننا بالزمن كثيرا ما يأتي مناقضا للحقيقة، ومع ذلك أصر على اعتماده، كما لو أنني بذلك أقدّم لنفسي تعزية حارة سابقة لأوانها، قبل مجابهتي حتمية الإخفاق المؤكد.

ستوفق! لا تيأس! مسكنات نفسية أتجرعها مع تأكدي من عدم جدواها.

"سعيد" وأنا انطلقنا أحدنا يتقدم الأخر، صوب المصلحة الإدارية المجاورة لاستطلاع حقيقة الأمر وتردياته، أرى نفسي مطالبا بمفاتحة رئيس المصلحة الحاج عامر في ذلك، من يدري قد يتفهم أوضاعي رغم أنه(..؟)

حركة دائبة تعيشها أروقة المصلحة لفتت نظري بقوة، بقاعة الانتظار على الأريكة أخذت مكاني، قواعد المقابلات في القرية بسيطة وإن أخذت في التعقيد بعض الشيء منذ مدة قصيرة نسبيا، الكثيرون يعدون هذه الظاهرة الوافدة إحدى منجزات " الحاج عامر" عدو الفوضى ومناوئ الفوضويين، علقت في صمت، وفي صمت دائما.

" عمي مومن أود مقابلة عمي عامر"

"عمي" شبيهة في هذه الحال، وإلى حد بعيد ــ بـ "لالة" التي أدمنت عليها "خديجة" نحو والدتي، كلتاهما صيغة إطراء خاوية المضمون.

عمي "مومن" وأنا لا يُعرف سر خلافنا، تناقضنا، تبايننا، الكل ذهب في تفسيره بعيدا إلا أنا، وقد يكون هو أيضا يقبع على تخوم الحيرة التي تشغلني، إننا في صورة الطريقين اللذين تشعبا، أحقا بلغنا هذا؟ من أعماقي لا أرنو إلى ذلك.

الطريقان يتوازيان، يتساميان في الصعوبة، في الالتواء، ويستتر رأس الخيطين في تناقض صارخ.

وتصفحت وجه "حليم" كما لو أني أراه لأول مرة بعد غياب طويل، في إمعان أحدق إليه، شخوصه إلى مؤسستنا أبدا يثيرني، أشعر أني أمامه في وضعية المجازف، فإشعار الحاج عامر أن "حليما" بانتظاره، أو يطلب إليه مقابلته أمر يتضمن كثيرا من خصائص التضحية بالنسبة لحارس بسيط مثلي.

حدسي فقط يؤكد عداء دفينا بينهما، بين الحاج بكل هالته، وبين الطفل اليتيم الذي لايزال في كفالة والدته، مسببات الكراهية المتبادلة بينهما لم أقف عليها رغم يقيني بتواجدها الأكيد. وهرعت إلى مكتب الحاج عامر محتفظا بوجومي:

" حليم يريد مقابلتك "

وانتفضت:

" ألم تبلغه أنني غير موجود؟!"

" كان في الإمكان لو لم يكن بمعيته " سعيد" زميلنا في العمل "

" بل زميله هو"

تنهدتُ:

" (النهر الصامت لا تقطعه يا ابن أدم)، ذره يدخل لست أدري ما الذي يبقيه بهذه القرية المضطربة أحوالها؟!"

ورددت نص المثل الشعبي وأنا في طريقي إلى غرفة الاستقبال، كل ما يحيرني في هذه الآونة أسباب العداء المبيت في نفسي " حليم" وحاج عامر لبعضهما؟ وقلت معلقا" إيه الصغير لا يحترم الكبير، قرين بابه في الواقع"

" صباح الخير عمي الحاج"

" وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"

كأنه يصحح خطأ وقعت فيه، وأضفت في ضيق:

" أعرض حاجتك فالوقت لا يُمهل"

" حاجة معروفة"

" لا داعي لتكرار المعروف حسنا فعلت "

اعتدل الحاج عامر في وقفته إيذانا بانصرافي، وأضاف فور أن شرعت في مغادرة المكتب الوثير:

" سأشعر سعيد بأي جديد قد يطرأ"

هممت بالقول بل أشعر " مراد" بدل " سعيد"، ولكن كل ما فعلته أنني سارعت بالانصراف، في حين تخلف " سعيد" بغاية تهدئة الموقف.

" عمي الحاج أراك تتطير بحليم كما لو كان غرابا؟!"

" عكس ذلك إني أحترم فيه خلقه المهذب"

" وما سر تصريفه بهذه الطريقة؟"

" سيتخمنا فلسفة لو أبقيناه بيننا"

" أنت تكره فيه منطقه إذن؟"

وتمتمت في إبهام: " الواقع إني أكره فيه أنه"

" ماذا تكره فيه؟"

" لا شيء لا شيء"

وغادرت بدوري مكتب الحاج عامر دون أن أضيف، وتثاقلت بي خطاي خارج الباب فسمعته يصفق بيديه ويقول في تحد وعلانية: " أه لو يتواجد هذا الثنائي الخطير بالمؤسسة، فإذن على مكانتنا السلام، حليم أبوه بالأمس كان ممن ثاروا على الواقع ثورة معقولة، وهادفة في رأي الكثيرين ممن أتتبع مواقفهم المتطرفة بمرارة وحزن، وهو ذا اليوم لا يتصورني إلا سببا كافيا، ومباشرا للقيام بثورة لم يحدد بعد إطارها وماهيتها، **الثورة هل هي جنون وراثي إذن؟!"**

" عمي مومن، عمي مومن، لأي وجهة قصد حليم؟"

وأشاح بذراعه:" دلف إلى متجر الشيخ الغوثي"

لا شك في ذلك إنه واحد من زبائنه المستديمين"

الشيخ الغوثي يبدو مستاء وهو يفرك كفيه في أسف، إنه بمفرده وليس بمعية " حليم" كما توقعت، ما يلفت النظر في عمي الغوثي عنايته الشديدة بهندامه، عباءته الناصعة

البياض، وعمامته المكية المشدودة بخيوط حريرية، وبرنوسه الوبري، هو أبدا يبدو في مظهر أحد فرسان البدو المنعوتين:

" عمي الغوثي، ألم يمر بك حليم؟"

وتنهد بتأثر: " مرور الكرام كعادته، ويهمك أمره إلى هذا الحد"

وقلت صادقا:" بل أكثر مما تتوقع"

" الحمد لله إذ لايزال بالقرية قلوب رحيمة"

استظهر الشيخ الغوثي دفترا ضخما أسود اللون، ما عتم أن أخذ يتصفح أوراقه الشبيهة بالمخطوط الدارس: " أنظر بلغت ديون زميلك 940426 د ج، ومع ذلك لا يعير القضية أدنى اهتمام، إن النشاط التجاري أخذ ورد وإلا كسد كل شيء، والده كان يكره الاستدانة كراهيته للخمرة، فسبحان مبدّل الأحوال يا سعيد، أيــه ميامين **((فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات"**(14)**.**

"والحل في نظرك يا عمي الغوثي؟"

" عرضت عليه حلولا منها أن يشتغل إلى جانبي، أتدري بماذا أجابني؟"

" لا "

" العمل التجاري يقتل أنبل نوازع الإنسانية في الإنسان!"، " تصوّر، إن التجارة لديه نوع من الشره فحسب، مسكين يجهل أنها عمل شريف، امتهنه الأنبياء عليهم السلام".

" لا تؤاخذه يا عمي الغوثي"

" أجل لم يبق له الدهر على واحد يحسن تربيته،

لكن هذا ليس شفيعا في تماطله "

" ما رأيك لو أحلت عليّ بعض هذه الديون فسددتها بالتقسيط؟"

وبرقت عيناه:

" نعم الرأي يا ولدي"

" شهريا لك 200 د ج ربع ماهيتي"

" اليوم فقط أشاهد صداقة من نمط أيامنا"

وتمتمت: " أيّامكم ؟!! كل شيء إيجابي تنسبونه إليها ولا نرى له أثرا فيكم "

غادرت متجر عمي الغوثي معتمل الذهن كعادتي، أه لو كانت ماهيتي بحيث تغطي ديون " حليم " كلها، أو تسعفني لاتخاذ موقف أكثر أهمية ازاءه.

"حليم" كفى أن تلوكه القرية بألسنها، حيادي، سالب التمييز، خيالي، متمرد، استبدادي، ولكيلا يضاف إلى كل هذه النعوت الوهمية، صفة المماطل كما حاول عمي الغوثي أن يوحي، وقهقهت بمرارة حين بلغت خواطري الفياضة هذا الحد من التصور.

أي الصواعق أوقع على نفسية "حليم"؟ أيُّها الرئيس، وأيُّها الكلي؟ الإخفاق في الدراسة ترتب عنه إخفاق أشد مضاعفة في الشغل، وتضاعفا ليتسببا في إفشال حب برئ كان من الأجدى أن يتنامى.

لكن، وبعين أكثر واقعية هل صحيح أن ما حدث لــ"حليم" يعتبر أو يسمى إخفاقات في الثلاث؟ دراسة حيل بينه وبين اتمامها، شغل منع من الانتساب إليه بأي وجه كان، حب أحادي يعيشه بمفرده دون أن تتاح الفرصة للطرف الأخر لكي يعبر عن موقفه منه.

كلِمتُه وهو ينعت " مراد " بشقيق الكرائم تطن بقوة في خلدي، كلمته هاته تخفف من حدة تعاطفي معه لأسباب لا يعلمها المسكين، عيب " حليم " أنه يبوح بكل شيء في حياته تحت ضغط وطأته النفسية، وبسهولة دون أن يرغب في معرفة طوايا صدور الأخرين، أهو عيب أم ميزة ؟؟ إنه في الواقع خاصية سلوكية يتحلى بها فريق لا يخافون المجتمع أبدا، يودون له أن يتقولب حسب ماهية أفكارهم بدل أن يسايروه في طواعية.

خطأ " حليم " أيضا، وأيضا، أنه يعدّ ما حدث إخفاقا يتأمله فقط من حيث النتيجة الخلاصية، بصرف النظر عن الأساليب والصيغ.

وبادرني فور لقائنا بغرفته:

"تتقمص سهومي كلما كنت بجانبي"

" الصحيح أنّي أتألم لألمك الوهمي"

" وهمي؟!أنت أيضا لا تفهمني يا سعيد؟"

اعتدلت في وقفتي أربت على كتفيه برفق، لكلانا مجال همومه لو تدري، "حليم" في شخصيته جانب أناني، فمعظم حوادث القرية يود لها أن تتمحور حول شخصيته فقط.

" وتضع نفسك مسؤولا عما حدث؟

" بالنسبة لماذا؟"

" بالنسبة للحب، للشغل، للدراسة؟"

" ملف نفسي يفتح فيم أعتقد؟"

" بل جدل اعتيادي"

" عقيم ".

" إنك لم تواجه الأمور كعهد الأخرين بالمواجهة، تفتعل إخفاقا في كل شيء وما هو بإخفاق!"

" وماذا غير ذلك؟"

"إخفاق نتيجة عوامل خارجية مثلا "

" إخفاق على كل حال ولو تعددت الحوافز، إن ما يهمنا من القضايا نتائجها وليس كيف تقوضت"

" ومن ذا يستطيع تحقيق كل ما يأمل؟"

" صوفية أيضا "؟

" فلنستشف النتائج على ضوء سعينا في سبيلها "

" مقياس سليم رغم أنه يؤكد إخفاقاتي يا أخي"

أشرت إليه بالجلوس إلى جانبي، وأنا مستمر في القول:" كل ما في الأمر أنني لا أخادع نفسي فأضاعف من شقائها، زملائي تحصلوا على الثانوية وقلة منهم أثبتوا جدارتهم في الانتساب إلى الجامعة، بربك ماذا فعلنا طوال مدة غيابهم؟ لا شيء بالطبع، لقد كانت الدراسة سر نجاحهم في كل ما يصبون إليه، حتى العلائق الوجدانية عاشوها بشكل ثان، ليّن وممتع يختلف اختلافا كليا عما نسميه حبا وما هو بالحب، بالإضافة إلى ذلك سيلجون الشغل من أوسع أبوابه، دون أن ينتظروا من الشيخ الغوثي أن يعرضه عليهم باستخفاف وتشف.

" على أي حال لست وحيدا في الميدان"

" من حيث عمق المأساة نعم "

" نرجيسية تحجب عذابات الأخرين ولو أنهم قريبون منك؟"

" لا أفهم!"

" لأنك لا تنصت إلا لنبضك ليس إلا"

" الماضي ـ يا سعيد ـ هو الذي أقفل الوصيد بإحكام، وأحدث طرقين متوازيين متناقضين، الماضي يا سعيد، إن تكتل الرؤى السالبة هو سر المأساة، الشيخ الغوثي، حاج عامر، الخالات مسعودة وحليمة وزهراء، مجموعة عيون لرؤية واحدة غالبة، نحن فقط نظهر امتعاضا حذرا نحوها، تصوّر، يخيّل إلي أحيانا أن " أمال" واحدة من مكونات الرؤى السالبة الغالبة".

وهززت رأسي: " ما دامت تحجل في أمية مزمنة، تستشف الطريق من مصباح والدتها المسنة فحسب، انطباعها عني قد يكون ذات الانطباع السائد بقريتنا "

" أتفتعل لها انطباعا عنك أيضا، ماذا؟ دع الأوهام جانبا وأنت العقلاني"

وبامتعاض شديد: " تقسو أحيانا " يا سعيد، وأنت في كامل قواك العقلية "

وضحكت مرددا: " ومن يكن حازما"، وتنهدت: " الواقع هو الذي يضاعف من قسوته، لم يتعود من واحد مثلي أن يكون طموحا، فللطموح شروطه المادية أيضا، وصدق المثل الفرنسي **((لا تحلم بجنة وراء الأفق و الورد يتفتح من تحت نافذتك))**(15)

الحلم. يتفصد دماء من أثار الشوك، شوك النافذة، يئن أنينا موجعا، يتأوه يتقوض يتضاءل، ينعدم، يعاوده نسغ من حياة اصطناعية رغم فنائه المحقق، ينكبت، يتمخض فيتولد الطيف مطعونا في فناء أشد زيفا مما كان عليه، وصفّقت بيدي وكأنني جننت:" بانصياعي الفطري أقمت حواجز رهيبة سدت كل منفذ قد ينعشني"

الوقت يدعوني إلى الانصراف نحو عملي، أدرك في ذات الحين أنه يلح على" حليم" بالعودة إلى الانهماك في خواطر غريبة تقاتل الفراغ المهول وقلّما تنتصر عليه.

فالدماغ البشري ليس يدا يلامسها الهدوء والرتابة كلما انثنت عن الحركة، لكنه الآلة اللغز الدائمة الدوران التي تتغذى من مستنقعها الراكد إذا ما فقدت جديدا.

لأول مرة منذ زواجي أَوُمُّ المطبخ، شيء من التحسن خضعت إليه أطباقه، ومعالقه وخزاناته ذات الطراز العتيق، وابتسمت على مضض إن " خديجة" تود بذلك أن تفرض نفسها على الأحداث المنزلية المشحونة بالتحفظ والرتابة.

ربما ارتأت أن مشاريع الإنسان في الحياة تأخذ طريقها إلى التنفيذ، بادئ ذي بدء من دائرة اختصاصه الضيقة، فالمطبخ ـ مهما كان الأمر ـ هي ولية أمره.

وقد يكون ذلك الانتقام الإيجابي الذي تتشبع به نفوس البعض، حين تكرس تضحيتها على جبهة ما تبدو للأخرين جانبية.

فحري بذلك الاهتمام أن ينصب على غرفة منامها، غرفة الزوجية، بدل المطبخ، لكن؟

" لم تردي عليّ صباح الخير؟"

قالت خديجة:" أه صباح الخير"

خديجة" ليست مذنبة على أية حال، لكنها الجريرة المجسمة، الذنب المرتكب، القذيفة النافذة بدون إصرار سابق ولا عفوي، ترى ما هو موقفي إزاء قطعة الرصاص الصغيرة الحجم الخفيفة الوزن التي تؤدي بحياتي حينما تعانق قلبي وقد نفذت اليه مجبرة عناقا أبديا؟

قد أحتقر فيها خنوعها، انصياعها الجمادي، ومع ذلك يبقى الجاني فقط هو اليد التي صوبتها نحو صدري مرغمة.

" ماذا أعددت للغذاء؟"

" ما ترى "

"رتابة في كل شيء، في كل شيء"

وتمتمت أه لو قدر لهذا المطبخ أن يصبح تحت تصرف " أمال"، إذن لاستحال مكانا شاعريا، روضة.

وما عسى "أمال " أن تفعل في وضع كهذا الذي أعيشه؟ تنويع الغذاء يتطلب شيئا أخر غير" أمال"، يتطلب رضى حاج عامر وهو لن يرضى، أيضا يستدعي سماحة مبالغا فيها من لدن الشيخ الغوثي، أمران لا يتحققان مهما تطاولت الأيام، واشتدت الرغبة فيهما.

ميزة " خديجة" قابلية الاستعداد للتضحية وهو جانب قد يفتقد في " أمال"، هوامش النعيم التي تكتنفها تعيق حاجتها إلى التضحية.

قد أضحي بكل شيء في سبيل الحب، ولكنه مبدأ رومانطيقي قد لا تتذوقه " أمال" إلا مضطرة أو مجامِلة.

ما أصعب أن نصدُق في المعاناة جماعيا، وما أبعد تحقيق ذلك.

" القهوة أصبحت كالثلج!"

" ذريها يا خديجة أو أعيدي تسخينها لو سمحت"

كلماتي معها أبدا رائقة رغم أنها شديدة الاقتضاب كأمر عسكري، فـ "خديجة" هي القذيفة وليست يد الرامي، ذنبها فقط أنها واقعية أكثر من اللزوم، عكس ما أرتجيه من بنات جنسها، سيما إن كن ينتسبن إلى عالمي المقفل.

يا نساء العالم، يا بنات قريتي الغافية لتنفرد واحدة منكن على الأقل بقابلية غريزية للعيش في كنف الأخيلة، عالم الحقائق المجردة، يشدنا رباط روحي وثيق، يترك للزيت، للشاي، للدقيق، للملابس، للزينة، دورا ثانويا في حياة المنزل الغافي.

ساعتها فقط أشعر بانتشالي من مخالب العالم المرئي المتناقض، عالم التمايز الوهمي الخانق لكل زفرة حارة تنبعث من فؤاد موجع، الكابت لكل نبرة شجية قد تترنم على تقاطعها روح مستهامة أو يصيغها عقل متنور."

ولمَ لا تصبح هذه الواحدة "أمال " بالذات؟ الكائن المستقر بأعماقي منذ ما يزيد عن عشر سنوات، استعاضة عن حنان الوالدة، إشفاق الأخت المتزوجة عطف الوالد المفتقد، حنان شفقة عطف مصطلحات مبهمة محتها أيادي الصروف من يومياتي، صيّرتها صفات براقة موغلة في المثال لا أعثر عليها إلا في عالم الأخيلة والتمني العقيم.

على هذه المرتكزات ينتصب حب جارف دافئ يطلب الخلاص، رائق يرنو إلى العطف، طاهر يثوب إلى العفة، شائق يروم الوداعة، مكبوت يطمح للخلاص، فإنّه مفض مستمر.

"حليم ما خطب الوظيفة؟"

الوالدة تجلس إلى جانبي على المفروش الصوفي المحاذي:

" حاج عامر رفض حتى محادثتي في الأمر!"

وبحدة صادقة هذه المرة: "إذن سأذهب إليه بنفسي"

"وما الفائدة مادام مصرا؟!"

" لايزال الماضي يقود حاضر الناس!"

"ماذا تعنين؟!"

" لقد كان من ألد أعداء والدك المرحوم"
وبانفعال:" أحقًا يا أُمّي؟ "
وهي تزمّ شفتيها:" أجل يا ولدي"
ورددت في ثبات:" إنّه ذو ماض مشبوه إذن؟!"
"إفرض هذا فما الجديد في الأمر؟".

" لا شيء لا شيء "

وأضفت وقد أخذ مني الانفعال أكثر من ذي قبل: "لا أرغب في مؤسسة يديرها حاج عامر".

وتنهدت:" الخبزة تستدعي مزيدا من التسامح يا ولدي"

وقد وضعت الفنجان جانبا حيث استلمته " خديجة":

" يحزّ في نفسي أنّي شخصت إليه"

" عمك مومن حاول الفتك بعامر مرارا أثناء الثورة، ومع ذلك"

وقاطعتها:" وكيف قبله عاملا؟"

" يخافه "

" والحقيقة؟!"

وتنهدت ثانية:

" وما عساها أن تفيد في سد رمق العيال؟"

انتفضت، غادرت المنزل مسرعا في طريقي إلى بيت "مراد" هذه المرة، الرجل الذي يحسن فن الاستفادة من الظروف، الكريم شقيق الكرائم كما ينعته "سعيد"

بواقعية، إنني أدرك جيدا أنه أمين على نقل المعلومات إلى حاج عامر أمانة شريط هاتف.

الباب طرقته بشيء من العنف، باب ينبئ بمكانة قاطنيه، وفُتحت إحدى دفتيه في رفق شديد:" مراد موجود؟"

" أجل يتتبع نشرة الأخبار"

وهمهمت:" صار سياسيا هو الأخر!".

" إبلغيه أنني في الباب"

وبرز "مراد" تسبقه نوبة حادة من سعال:

" سابقة حميدة يا سيد حليم تفضل"

وضعه السكني يؤيد تراكمات الشائعات الحائمة حول استفادته من الظروف، سلوكات شقائقه الفاتنات كما يسميهن شباب القرية، ووالدته" زبيدة" المحتفظة بمخلفات جمال أخّاذ.

" نعيمة إلينا بالشاي".

"نعيمة " دخلت ترفل في ثوب فضفاض صارخ الحمرة، وقد شدّت شعرها إلى ظهرها بمساك لامع تعمدت ضخامة شكله، حملت صينية الشاي وتأملتها بنظرة شبه فاحصة.

إن الأسماء الشاعرية غالبا ما تعبّر عن مسميات جمادية بلهاء، رغم ما تعالج به قسماتها من جمال مصطنع.

"نعيمة" لا تتضمن في مواصفاتها الجمالية طعما إلا اسمها الذي يثير الانتباه، ويثير نزعة حيوانية مقيتة لدى الزبائن السريين، الخواص،

إنها جهاز التنويم المغناطيسي المتحكم في عقل حاج عامر.

" مساء الخير سيد حليم"

" مساء الخير"

أشعر أنني أتمزق أتميز غيظا، سأفضي إلى " مراد" بما يمخرعباب ذهني وانصرف غير مقدر للعواقب، **إن الاستراتيجية المفيدة هي فقط أن تتصرف بدون استراتيجية، وإلا استهلكت وقتك في احتمال العواقـب وتقدير النتائج إ**

" جئتك في أمر أعتقد أنه هام"

" خيرا يا أخي"

" حاج عامر"

" ما به؟ هل قابلته ثانية؟

" مقابلة اعتيادية"

" وماذا ترى؟"

"أرى أن أكشف حقيقته، أكاتب الجهات المختصة حول ماضيه الأسود؟"

" ماض أسود؟!"

" كل القرائن بحوزتي، سيشنق بالساحة العمومية أو يودع غياهب السجن، أو يُقذف به إلى ما وراء البحر وهي أمور لا تهمني، لست مسؤولا عما اقترف في حق هذه القرية، باسم الماضي ـ يا "مراد" ـ سأتناول الكلمة للمرة الأولى، الماضي الذي يتنكر له الجميع، الماضي الذي أرى الحاضر واحدا من صنائعه فقط "

" مهلا يا حليم ـ وأنت الحليم ـ فيم كل هذه الثورة؟ أتعهد لك أنني سأقنعه بالعدول عن موقفه تجاهك، إنه في يدي كالخاتم"

" ولكنني أمقت أسلوب الوساطة، والمجال ليس مجال محاماة، أخبرتك فقط لأنك واحد قد يهمك الأمر؛ أمره أو أمري. تصبح على خير"

" والشاي؟"

" شكرا"

من عادتنا في القرية، عادتنا الموجبة أو السالبة، أن الضيف في حالة الغضب، في حِلّ من معاملات هذه الضيافة، فمن قواعد القطيعة أن الضيف يضرب عن الطعام في حال إخفاق المسعى؛ خطبة، دية، المطالبة بتسديد دين، وبالنسبة إلي فإن مهمتي في هذه الليلة تفوق من حيث الأهمية تلك القواعد جميعها، فالأمر يتعلق بالماضي الذي أوصد أبوابا وفتح أخرى على مصاريعها، ما يطمئنني أن كلماتي المتأججة ستتصل

حاج عامر بحذافيرها، برمتها ملتفة بحدة غضبي دون انتقاص، وهو فقط ما رغبت فيه حين وفدت إلى " مراد".

بانتظاري وجدت " سعيد" وقد توقعت ذلك، إلا أنني قررت كتمان ما جرى، فـ " سعيد" سيؤاخذني، يتهمني بالتسرع، بالتورط في قضية خاسرة من أساسها، لكنها احتمالات لا تثنيني عن المجازفة، ولاحظ هذا ثورتي تطل من عيني:

" ما بك؟ أمر بك طيف أمال ؟!"

وحانقا صحت: " فلتذهب أمال إلى الجحيم".

" عودة إلى الرشد إذن، ثق أن دورة التاريخ ستتوقف عندها"

" سيصير الحاضر ماضيا ليحدد اتجاهه بدقة"

" ماذا تقصد؟!"

" فيما بعد ستعرف"

"اخالني أصبحت محل ريبة؟"

" حاشاك أن تصير"

وأضفت:

" غدا سأُهدد بواسطك"

" من طرف من؟"

" حاج عامر، احفظ وصيته جيدا، أراهن أنه لن ينام، ولسوف أنام قرير العين لأول مرة، **فعلى أنغام التاريخ ينام ذوو الأذواق السليمة"**

" تنام! وأمال؟ "

" دع " أمال" جانبا يا أخي لكأني بك تعتقد أن أحاديثنا حولها تمثّل قاسما فريدا يربطنا، ما أكثر ما يربطنا غيرها.

" ما يحيّرني أن أمال لا تمثل في اهتمامك الليلة إلا حيزا ثانويا؟"

" منذ عرفتها ظل مكانها بعد الدراسة، بعد الشغل."

" عجيب أمرك ليس حبا هذا الذي تتحكم فيه، وترتّبه أنّى شئت"

" ستراه أعجب إذا كان الغد"

" ردْ معي يا سعيد **((أليس الصبح بقريب))** (16)

" أوه الغد ـ الغد ومن يعلم أمره غير الله "

" وأنا، لا تغفل قدرتي على معرفة بعض ما فيه "

كان عليّ أن أترك "حليم" في هذه الآونة خوفا من مغبة ما قد يسفر عنه لقاء ساخن كهذا بدون سبب كاف لذلك، لم أعهد فيه موقفا مماثلا منذ عرفته، فما سر انقلاب الوضع؟

حليم" يهمل أمر "أمال" في هذه الليلة، بماذا عساه يهتم عوضا عنها؟

سؤال يجثم على صدري، هل صادف أخرى غيرها؟ معروف عنه أنه لا يعير الباقيات أدنى اهتمام، انصرفت محتفظا بهذه الخواطر وقد ألمني أمره.

الكتاب الضخم الذي كان بين يدي طويته في عناية، انخرطت في تفكير عميق، نتيجة مسعاي أتوقعها وخيمة، سأُهدد من قبل حاج عامر في أبسط الفروض، منحته سببا كافيا لحرماني من الشغل مدى الحياة، وما مؤسسة أخرى بقادرة على منحي هذا الحق، هذه الهبة، فكل شيء بقريتنا غزاه نفوذه كالدم المتجمد في أوصال القرية.

وتطلعت " خديجة" من النافذة وكأنها لا تعنيني: " العشاء جاهز"

" حاضر".

من دأبي أن أتناول طعامي كما يتطفّف المريض دواءه، أما في هذه الليلة فأشعروكأن شهيتي قد تفتقت بشكل عجيب، سآتي على الصحن، أطلب إلى " خديجة" أن تعيده للمرة الثانية مترعا.

" خديجة" أيضا في هذه الأثناء استشفها بمنظار آخر مناقض لما تعودتُه،

إنها تبدو رائقة، مهذبة وجميلة، خليقة بالرأفة والحنان، سأرقّ إليها فأنا في مركز قوة لأول مرة في حياتي، لذلك أحس إحساسا أكيدا بلزومية احترامها.

الشعور بالعدم هو وحده الذي يجعل آمالي تأخذ صورة الأشباح الراكضة المخيفة، بدل نعت الأطياف المحببة الوديعة، ففي الحالة الثانية يغمرني الشعور بالانتصار.

إن السعداء هم بالذات الأقوياء، أعرف إنني في تقرير هذه الحقيقة التقي فيلسوفا مشهورا جدا قال بمثل هذا، ولكن شتان بين الإقرار الصادر عن قناعة والصادر عن تأثر.

سُلّم الحياة سيعاد طرحه بمجرد تضعضع العتبات الأولى في جرمه المنتصب.

الوجود لا يتراءى جميلا باهرا لمجرد توفري على ذوق جمالي رفيع، أو رديء لسلبية هذا الذوق، إنه في الحالتين رهين ما أطلق عليه من أحكام، إنه كالهندام الذي أبرز فيه وقد راقني أو مججته.

" أراك رائق المزاج؟"؟ قالت خديجة في كلمات متحفظة قلقة.

" أرجو أن أبدو كذلك"

" والسبب؟"

"رهين هذا القفص"

أشرتُ إلى صدري، وواصلت سعيها المنزلي وكأنها أضربت عن الكلام فأحاديثنا دائما برقية.

الضباب يلفّ الأفق، الطريق يختفي، ماسحات الزجاج تبدو كما لو أنها تعبت، و"خليفة" إلى جانبي يغط في نومه، "أمال" لا أعرف وضع جلوسها بالمقاعد الخلفية، فالحديث محظور، مجرد سؤال بريء يثير أكثر من تساؤل مغرض.

هناك، في المدينة التي نحث السير للقائها ماذا يلفت النظر؟ الجامعـــة التي تحتضن مجموعة من رفاق الصبا، أحاديثي عن مستوى كهذا تبدو حقا مبهمة، ضربا من الرطانة، ما علاقة سائق محترف بالجامعة؟ بعالم الأستاذية؟

بظاهر الكابح التصقت رجلي التصاقا طبيعيا، السرعة تهبط إلى إيقاعها المألوف، **إن مدخل المدينة الجامعية له حرمته، أدبه، أخلاقياته، قيم سيره، لعل كبار علماء المرور أوصوا بتخفيف السرعة عند مدخل المدينة لهذا السبب بالذات، من يدري؟**

ويستمر الطريقان في التباين، في الالتواء، في الصعوبة، في التناقض رغم وحدة الصيرورة.

نام الجميع إلا حاج عامر وأنا كما أتوقع، ومع الإشراق قذفت بالغطاء بعيدا، تشمرتُ لاستقبال الطلائع الأولى من الزوار، الخبر المفزع، صك التهديد.

لم أفكر في أمر رحيلي وكأنني أتصور التهديد لا يبلغ أمرا كهذا، قد يطلب مني ذلك فورا من يثق؟

أعرف أن استيقاظي لم يكن مبكرا، لقد كان جد متأخر كعادتي، كان أول الطارقين " خديجة" في يدها فنجان من القهوة، ارتأت أن تعده كدأبها، وتنهدت بحرارة وهي تضعه إلى جانبي، وتقول كما لو أنها تواصل حديثا قد شرعت فيه منذ حين: " لذلك راق مزاجك البارحة إذن؟!" وقفزت وقد خُيل إلي أن القرية كلها استقبلت النبأ مع الصباح الباكر كنشرة خبرية في آوان حرب، وابتسمتُ بدون سبب:" وما السبب؟!" وشهقت شهقة ذهلتُ لها وهي تواصل:" زرت منزل العواهر بالأمس؟ أليس كذلك؟"

وفي وداعة طفل ضحكتُ، كل تصرف يترجم في قريتي المسكينة بما لا أهوى. " أعرف أنه راقك حديثهن، إنهن كالفخاخ المنصوبة "

وهي تتهيأ للانصراف:" تسامحنا في أمر القلب فهو ذا الجسد قد لحق به"

" اسمعي كفى نقيقا القضية أكبر مما تتصورين، بل مما يصورها خيال القرية المخدّر"

ولأول مرة تلطم وجهها في عنف:" قضية زواج إذن كما أشيع، وممن؟ من " نعيمة" الداعرة يا للمهزلة!"

كنت غداة خروجها أواصل ضحكا رتيبا بانشداه فطري خال من كل تعقيد، وأخذت عن تمديده متسائلا في غرابة؛ لعل القذيفة التي رميت بها إلى صدر حاج عامر قد أعيدت إلي دون أن تنفجر، مجال انفجارها هو منزلي، حياتي الزوجية بالذات.

إنهم بحق أساتذة دعاية

مؤامرة إذن ما في ذلك شك، هرعت دون أن أرتدي نعلي: " خديجة، خديجة، من جاءك بالخبر؟"

" انفعالك تأكيد أخر لما سمعنا"

" قولي فقط، افصحي لم يعد بيدي زمام المبادرة، لقد حولوا الاتجاه بإحكام"، " ما معنى كل هذا؟ ألم تطلب يد " نعيمة"؟ قد تكون إحدى شقيقاتها ربما"

" أين أنا مما تقولين؟"

" أه أه لو تعلم لالة مسعودة بجلية الأمر؟"

"أي أمر يا هذه؟"

" أمر الزواج المزعوم، أُقسم لو أنه تعلق " بـــ "أمال" ما لقي مني هذا الفزع، أمّا أن يعني فاجرة مشهودا لمنزلها بالشيوع، فهو يؤلمني حقا حقا يا حليم "

وأجهشت بالبكاء، وتساءلتُ كما لو أنني أغفل أمر دموعها:

" وتعرفين أمر أمال؟"

" أمال" سمعتها غير ملوثة على الأقل."

" بل قولي بعيد الإقامة"

" أتدافع عن نعيمة؟"

" أدافع فقط عن نفسي المتهمة، المتخاذلة، المحكوم عليها بالإخفاق في كل مسعى"

شبح التفاؤل لا يسعف الحلم حرية الحركة من أجل النماء، كجنين اصطناعي يألف وبطبعه طبيعة الرحم البشري، أو الينوع بعيدا عنه، في غير حماه.

الحلم ـ في غالب الأحيان ـ هروب مصطنع أودعه أحاسيسي، مع فقدان الجرأة على استفهامه عن صيرورتها حتى ولو كان لا يتسع للاضطلاع بها

أزيز هذه التصورات يتصارع بخلدي وأنا أحث خطاي نحو مكتب " سعيد"، من غير الوارد أن يبقى بمعزل عما يجري وهو الحميم المخلص، أو قد يفضي إليه حاج عامر بأقوال حول الموضوع إذا ما أخطر فعلا بذلك، لمعرفته بنوعية الصداقة التي تربطنا تماما كفعلي إزاء " مراد".

العم " مومن" كان يجلس بهدوء بال على كرسي خشبي قد نصبه بمخرج الرواق الرئيس في المؤسسة، على بعد خطوات منه يقع مكتب " سعيد"

كل ما يخشاه "مومن" فيّ أنني وحاج عامرعلى طرفي نقيض، قد يذهب به هذا التخمين إلى توقع نوع من التحالف معه إثر ذلك الرباط القدسي الذي سبق وأن جمع "

مومن" بوالدي الفقيد ذات مرة، وإذ أعطي موقف العم" مومن" كل هذا الوزن، فلأنه شاهد الماضي، الحقيقة المجسمة، المتحركة، التي قد يُزال عنها النقاب لتقول في أحداث القرية كلمتها الفاصلة ذات يوم.

" صباح الخير عمي مومن"

" صباح الخير كيف حال حليم؟"

" سعيد موجود؟"

" تفضل، إنه بمكتبه"

هكذا دائما يصرفني عم "مومن" بسرعة فائقة وكلمات مقتضبة حتى لا يضبط معي سويا.

"سعيدّ" مجامع يديه على وجهه وكأنه يبكي أو يفرك عينيه، جاثما كان على مقعده الخشبي خلف مكتب فولاذي مستطيل الشكل.

" أهلا أهلا "

" كيف حال سعيد؟"

" تحت الصفر"

" لم؟"

" أيضا تسائلني عجبا؟

" سعيد ما بك؟"

" حليم ما بي كاف بصورة لا تتسع لمزيد، أتفهم معاني كلامي؟"

" صدّقني لا أفهم!"

" ولكن الجميع يفهم"

" ماذا؟"

" قصة الغرام الجديدة التي أقيمت على أنقاض حب "أمال" الوديع، وزواج خديجة المسكينة؟"

زفر وعيناه تتفحصان بقوة وصمت تقاسيم وجهي:" أمال التي تحتل في اهتمامك درجة ثانية بل رابعة بعد نعيمة المشاعة؟"

وجلست دون انتظار إذن على مقعد كان بالقرب مني:" سعيد من أنبأك بهذا؟"

" ومن لم يتنبأ به يا أخي؟ هل تخال القرية قفرا ما به من حراك؟ لكن ما منعك من أن تشاورني الرأي قبل الإقدام عليه؟؟ أيضا ما الداعي إلى افتعال حكاية " أمال" لتصريف الأنظارعن هوة الفاجعة؟"

صمت رهيب يحيط بي وكأن الكلام لا يعنيني، بالفعل، إنه يعني واحدا أحب " نعيمة" وتهالك عليها وأنا لم أكنه ولن.

" إنك تخاطب حليم يا سعيد؟"

" هنا تتضاعف المأساة حينما أجدني مضطرا لألوم رجل المبادئ والقيم"

كل ما استخلصه من كلام زميلي أنه غير مخلص في ثورته.

" من القى في روعك هذه الزوبعة؟"

" زوبعة؟!!؟

"أقسم أنها لكذلك"

" وما جلية الأمر إذن، عسى أن تكون مناقضة "

انهمك في الاستماع إلى أحاديثي وهي تتنزل ثابتة صادقة، تضيء خفايا اللبس وتدحض الغلواء، كانت مرافعة يدافع فيها المحامي عن نفسه، يبرئ ساحته.

" لمَ لمْ توكل إلي نقل الأمر إلى حاج عامر بشكل يباغته دون مقاومة"

" أفي إمكانك ذلك؟"

"وما المانع؟"

" وظيفتك"

" وما دخلها في الموضوع؟"

"سعيد" شيء يختلف بالمرة عن "مومن"، يرى خبزته في مأمن من حاج عامر حتى والخلاف يدب بينهما على أشده.

" ما سر هذه القوة المتناهية يا سعيد؟"

" سرها في الأعماق، في معرفة مواقع الأقدام بعيدا عن التهور"

المتحدثون عن صراع الأجيال يرون الوضع معكوسا تماما بيننا حاج عامر وأنا، كان عليه أن يُحسن تربيتي لكن أصبح لزاما عليّ أن أعيد تربيته ولو أن ذلك يبدو مناقضا لمنطق التاريخ.

"خليفة" يشير بيده إلى تغيير الاتجاه، أعرف مقصده سيزور زميلا له في القرية الواقعة على اليمين من الطريق، زميل في المكانة، في النفوذ سيؤكد الزميل ـ أتوقع ذلك ببداهة ـ خدمته وإخلاصه، وترتجف السيارة بحكم نوعية الطريق، فطريق السيد " خليفة" في معظمها غير معبدة رغم أن السيارة من آخر طراز؛ إن الطرق الريفية الضيقة ذات الأخاديد تحتشم أمام العجلات الضخمة وهي تطأها. الطريقان يتوازيان يختلفان في العمق في الالتواء، يتمايزان في الصعوبة، يتداخلان أحيانا يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناهية متناقضة.

الحلم خداع مقنّع يتوارى في أحوج اللحظات إليه، نغماته الوهمية الشجية تغوص ذبذباتها عبر ارتجاجات الفضاء، نبضه المتواصل يتوقف متئدا، في توقفه وحشة وانفراد، ألم يفتت أعمق نزعات الروح، يثير في توثباتها ارتخاء، في توهجها خفوتا.

الحلم لم يكن أبدا واحدا من أنجم السماء، متألقا نائيا عن عراك الأرض، عن تناقضات الوجود الصارخة، وإلا أصبح في مأمن من الاندثار، خالدا رائدا قويا.

سجل الصادرات كنت أتصفحه ولو أنني في الواقع أجرجر خواطري الثقيلة، وصدري الموجع لا يشتغل في غير صياغة الآهات وتمديدها، ويصرف نظري " بشير" وهو يدلف بوابة المتجر ليسر إلي أن " مريم" قد وفدت منذ الإشراق على المنزل.

كلمات مبهمة أرددها وكأنني سئمت كل الأحاديث، لقد أنهت " مريم" منذ زواجها حولا كاملا، المنزل منذ أيام خلون في انتظار قدومها، كل شيء يسير وفق العادة وإلا صارت القرية خرابا، كما ردد جد " خديجة" أكملت تعلقي.

والدتي " مسعودة" لا ترى مذ الآن في زيارة " مريم" تعذرا، إذ أتمت السنة كاملة وقد حظرعليها ملاقاة ذويها الأكبر سنا، العادة.

أبدا أفكر، حتى إذا هممت بإقفال المتجر بغاية التوجه نحو المنزل حيث حلّت " مريم" الوافدة أفكر.

" ما الضير لو أقمتَ مقامي برهة من الزمن؟"

قال "بشير" في سرور غير متوقع:

" حاضر"

" بع قطع الحلوى فقط"

" كما تريد"

"أه، يا للصدف العجيبة هو ذا سعيد قد أقبل"

"سعيد" كائن مناقض للحلم أو مرادف له لا أدري، إنه يفجّر الحقيقة صارخة عارية تلتوي، هو السبيل إلى عودة الماضي الذي أسس على الحقيقة وتشامخ على عاتقها.

" مرحبا سعيد"

"أهلا حليم، أه بشير أيضا موجود"

استطردتُ، جلستُ على فروة جلد ملقاة على صندوق خشبي بالقرب من الباب، ومدّ" بشير" يده في خجل يصافحني وعيناه مسمّرتان على الأرض. " وأحوال الشغل يا حليم؟"

" على ما هو معروف نوع من قتل الفراغ ليس إلا"

"إيه ما خطر ببالي قط أنك ستشتغل يوما وكيلا لمتجر الشيخ الغوثي"

" وبدون أجرة مدفوعة"

" الديون القاصمة يا أخي"

وتنهدت حانقا:" مع ذلك أريد لواحدة كأمال أن تهيم بحب جرسون مثلي، إنه ابتزاز علني"

وقهقه " سعيد" قهقهة متعبة: " من أدراك قد يكون التجار فئتها المفضلة، المتاجر فخخ منصوبة هدفها كل ما دبّ على وجه البسيطة".

" فعلا لقد تذكرت نكتة مرت بي البارحة، والدتي تتحفز لحرق الكتب بدعوى أن حاجتي إليها لم تعد قائمة بعد حصولي على الشغل!"

" ما يحز في نفسي هو فقط تشفي حاج عامر، أتدري بماذا صارحني أمس الأول؟"

" كلا!"

" في نظره أن حليم ركب رأسه حين حاول عبثا استفزاز واحد في مكانته"

" أجل إن السم لا يقتل الحقيقة، وإن أودى بأشباه الحقائق".

" صدقت".

وكتمت أنفاسي كيما أود الاختناق وراودني السهوم كدأبي، إن شغلا من نمط كهذا يجبرني باستمرار على التحرك في اتجاه معاكس للأحداث، معاملاتي للأخرين حذرة، قلقة، محظورة، عكس معاملات " سعيد" المشروعة المشاعة، المتعارف عليها.

" بضائع مستوردة من الخارج أكتم أمرها إلى أن يعود الشيخ الغوثي"

" أوفدني حاج عامر لاقتناء(5) كلغ شاي نوع71".

"خذ قائمة بأسماء الزبائن المرخص بتموينهم من سميد فرنسا".

" أكتم أمر البضائع الكائنة بالمستودع الخلفي إلى حين آذن لك"

"قطع غيار أجهزة اليكترونية، أه لو تدرون أتعابا تجشّمناها في سبيل الوصول إليها"

كتمان، حذر، همس، غمزات، درب حياتي متكامل القسمات، قائم بذاته على مساومة منطق الأشياء.

"سعيد، أخيرا وفدت علينا مريم"

" في الذكرى الأولى لزواجها أليس كذلك؟"

"أجل سأنصرف لزيارتها على أن تقوم مقامي على بضائع الشيخ الغوثي"

" حاضر، كلنا فداء للشيخ الغوثي"

وضحكنا معا وانصرفت وقد تحرك في أثري" بشير" يقضم قطعة حلوى، ولحقت بي صيحة من سعيد: " لا تنس نصيبي من الشواء اللذيذ".

" مريم" جاءت محمّلة بمجموعة من الهدايا، في مقدمتها الشواء اللذيذ كما وصفه "سعيد"، شاة بكاملها وهذا المهم في نظر الوالدة، فمن غير الوارد البتة أن تزور العروس ذويها في ذكرى زواجها دون شواء، إنها معرّة الدهر.

جمع من النسوة وافيته وقد حضر الحفل الرمزي، تتصدّره وجوه أصبح تواجدها في مثل هذه المناسبات أكثر من منطقي، بل طبيعيا، الخالات زهراء ورحمة وزبيدة وأم الخير زوج الشيخ الغوثي، وأخريات يقلهن سنا وشأنا، ويفقهن جمالا وبهاء.

" رفعتْ رأسك يا خالتي مسعودة "

"الله يسلّمك يا ابنتي"

"أتحسبينها ابنة الصديق؟!"

ارتجّ الفناء بقهقهات صاخبة، تزعجني كسكاكين تلتوي داخل الصدر، واصلت الخالة " رحمة" باستهانة مريرة:

"ابنة الصديق عادت إلى ذويها في السنة الماضية، في زيارة أولى بدون شواء، ليلتها أثرت حديث السمار، مادة غنية في لقاءات العجائز والنسوة طوال السنة"

وصاحت زهراء بتأثر:" يا للفضيحة!"

في مضض شديد ابتسمتُ:" هذا فقط ما يشغل بالكن، إنما فعلت ذلك المسكينة مضطرة"

بشزر رمقتني والدتي:" كل تصرف في نظرك له عذره"

وقالت "زهراء" في تعجب:" نسخة من سعيد".

وبعدم الاكتراث تظاهرت كدأبي:" احتفظي لسعيد بنصيب من الشواء"

واجابتني على الفور:" أدعُه للحضور ليلا مع بقية الرجال"

" ومنهم؟"

" الشيخ الغوثي، حاج عامر، مراد، خليفة، وغيرهم.

" إلا حاج عامر"

" من العيب أن تظل معه في صراع وهو أحد أنداد والدك"

" إلا هذه يا أمي سينوب عنه عمي مومن في الحضور"

اتجاه غرفة منامي انصرفت، من الطبيعي أن أعيش في صراع مرير مع حاج عامر، فما ليس طبيعيا فقط أن يسود بيننا وفاق تحت أي عنوان كان هذا الوفاق، هذا ما أؤمن به إيمانا غير قابل للمساومة.

حسبي اقتناعي أن عِداء من هذا النوع ليس وليد رغبة في انتقام أناني ضد موقف حاج عامر من تشغيلي، لكنه عداء يستمد استمراره من قوة التاريخ ذاته.

فورأن استقر بي الجلوس، هرعت الي " خديجة" بوجه يعكس فوران ثورة عارمة، قالت بانفعال شديد وهي تنتصب إلى جانبي لاهثة:

" حليم؟"

" ماذا أيضا؟"

" ما سر احتفاظك باسم مراد ضمن قائمة المدعوين للعشاء عكس حاج عامر؟ إنه زميله!"

صادقا تساءلت:

" مراد؟! وهل يوجد اسمه ضمن القائمة؟"

" فعلا وصادقت عليه أمام الجمع بدافع"

" بدافع ماذا يا خديجة؟"

"بدافع حبك نعيمة"

انتصبت واقفا كما لو أن صدري قد تلقى عود ثقاب متقدا:

" من اقترح القائمة؟"

" أنا ولالة"

"وإذن!"

" لكي اختبر ولاءك لصويحبات المنزل المشاع "

" ومن دعا زبيدة؟"

"لالة"

" وهدف الدعوة؟"

" لا أدري"

"أتظنينها قضايا تشغلني؟ أتخالينني خالي الذهن إلى هذا الحد؟"

قالت ساخرة:

" وما الذي يشغلك وقد أنهيت أمر الدراسة، وتحصلت على الشغل؟ أعرفه جيدا يا حليم أرجو فقط ألا يكون أمر "نعيمة".

وفي شطط:

" كيف أقحمت موضوع هذه العاهرة في حياتي؟"

" عاهرة؟! حليم يقول بهذا؟"

وضحكتُ إلى أن استلقيت على الجدار:

" شهادة شاهد من أهلها أليس كذلك؟"

" ماذا تعني؟"

" لا شيء اهتمي بأمر الضيوف"

غادرت الغرفة مرفوعة على أجنحة فرحتي، "حليم" يعترف بشذوذ " نعيمة" صراحة إذن فهو لا يحبها، ولو أغفل اسم شقيقها ضمن قائمة المدعوين،

" زبيدة" قبل حين لم يصدر عنها ما من شأنه أن يؤيد افتراض علاقة بين " حليم" وابنتها، نظراتها جد طبيعية، أحاديثها معقولة.

لكن، ما سر خلوتها بـ "مريم" وقتا طويلا أثاراحتجاج والدتها؟ قد أكون آخرمن يعلم كالزوج المخدوع، في نفسي ثورة مكبوتة على " نعيمة" رغم وهن احتمال تعلق " حليم" بها.

كان عليّ أن أتوقف بمحطة البنزين الموالية، وانتظرتُ دوري ضمن طابور من السيارات، الطوابير اكتسحت مناطق الجنوب الشاسعة أيضا هكذا علّق " خليفة" وهو يرى في ذلك سببا كافيا لتذمره:" إن على هذه الأسماء الكثيرة من الشركات (الوطنية) أن تقوم أو تُطلّق".

وأضاف " خليفة" وكأنه يحادث الفضاء الشاسع:" في بلاد البترول يباع البنزين كما لو أنه مستورد". وتدخلتُ لسبب ما:" هذا أمر يهم أصحاب السيارات وحدهم على كل حال"

الحلم، أبدا يضمحل، يستحيل فتاتا دقيقا متناثرا في سماء متجهمة، أدرك أن احتجاج "خديجة" على مواقف مفتعلة لــ" نعيمة" إنما هو تعبير عن شدة استيائها من أحداث "

أمال"، فالإنسان الموقن بعجزه أمام موقف ما يفرغ جام غضبه ونقمته على موقف أشد بساطة قد يكون أخف وطأة على نفسه من الأول.

سلوكات إسقاطية يمارسها رغم تأكده من عدم جدواها في الغالب، أنا أيضا أقع في مثل هذا الشكل من أشكال الانتقام المفتعل الوهمي، خذ مثلا موقفي من بضائع الشيخ الغوثي، أحيانا أكاد أنقضّ عليها، أقذف بأثمنها سعرا إلى الشارع، أتخيلها لحمة الوفاق القائم بين الشيخ الغوثي وحاج عامر.

إبان الأشهر الأولى لزواجي من خديجة، كنت رؤوفا بها متفهما عوامل نفسيتها والظروف التي قذفت بها بين أحضاني، أود لها أن تقتنع بأني وإياها ضحيتان لقاتل واحد، أمّا اليوم فألحظ موقفي منها وقد تغير تغيرا ملحوظا، لقد اعتصم نازعي الإنساني والعاطفي باللاشعور، حيث يشتد هاجس طاغ عنيف طموح.

لقد أخذتُ أتفطن إلى نزعة إسقاطية مضطرمة الجوانب، إن في احتقاري لـ"خديجة" دوسا غير واع لمكابرة محتملة في " أمال"، وتجاهل نوازعها الضارعة إلى الحب، تحديا لنوازع " أمال" المستقرة الخالية من كل تأثر، في اعتقادي، خديجة إذن هدف مجسم لكوامن انتقامي من المرأة، أمّا مكابرة، شقيقة، حليلة، حبيبة نائية!

مناخ ضبابية تتكافأ في الكثافة، تتساوى في السمك، تتحد في القتامة، دوامة شديدة الفعالية من التقهقر وتثبيط العزم.

كل شيء لا يتساهل في تغير موقعه الوراثي، فضلا عن ذلك يأخذ شكلا مغناطيسيا شديد الجاذبية.

إن ما أؤمن به ـ وقد عاقه عائق فولاذي عن التجسم ـ ليس أمامه من ملاذ إلا اللاشعور الذي يحمل في هذه الحالة معظم خصائص العقل الواعي المكبوت، مادام هذا قد اختار لنفسه مرتبة مناقضة.

قوام الشعور يتضاءل إلى حد لا ينبو فيه عن أسوأ ما فيّ، فيستحيل مركزا عدوانيا يمور بنزعات التمرد والكراهية ومحاولة التملص والانقضاض.

التفكير ينط بي أحيانا إلى اعتبار تعلقي بطيف " أمال " هروبا هو الآخر، محاولة استعاضة عن إخفاقات مؤكدة في جبهات أخرى، لكن وجداني لا يبصم إقرار هذه الفرضية، لأنها في روعه انهزامية أكثر مما هي تجنب للانهزام.

انفرج الباب عن وجه " بشير" وهو يلهث من وعثاء مشوار طويل، انتشلني من بؤرة سهوم مريب:

" الشيخ الغوثي يدعوك فورا"

" ماذا يريد؟"

" إن الشاحنة تقف بجوار المتجر"

وتحركت فرحا، يوم جديد ولاريب، قدوم الشاحنة وحده فاصل بين الساعات الصباحية القاتلة والمسائية السريعة الدوران.

هكذا أنا إذن، باب لا يُدق إلا من الخارج، حقيقة استشرفتها

حين كنتُ أُّحث خطاي تلقاء متجر الشيخ الغوثي، فتضاعف ارتيابي في قدرة قواي الذاتية على تحقيق شيء يذكر، باطِنيتي مجرد قطع غيار مهمتها المصارعة في غير انتظام لتأدية وظيفة عقيم معروفة النتيجة.

" لعلك نسيت الاتفاق؟" بادرني الشيخ الغوثي مازحا.

" أبدا"

" إذن انصرف و"خليفة " للإتيان بالبضائع الجديدة"

"خليفة" ابن الشيخ الغوثي، ومحط أماله في تجديد مجد العائلة بعد موته، لكن هذه الصورة المشرقة التي يرسمها الوالد لمستقبل وحيده تفقد في الغالب مجموعة معتبرة من أصباغها، يأتي في مقدمتها صفة التسامح التي تكتنف نزعة الجشع المتأصلة في نفسية التاجر الحاذق، وهي صفة لا تخيف الشيخ الغوثي إلى الحد الذي أتوقعه، فالمثال ظاهرة يقلمها الواقع

وفق مقتضياته، والوجود لا يرتدي ثوبا يفوق قامته كما أكد الشيخ الغوثي في عقلانية مبالغ فيها وهو يطمئن نفسه ذات مرة.

خواطر تستأثر باهتمامي وقد اتكأت على المقعد الأمامي للشاحنة إلى جانب "خليفة" السارح ببصره عبر منحنيات الطريق، وكأنه يتأكد من حسن سياقة "علي" المشهود له بطول الباع في مقارعة الطريق.

في أحشائي انتشاء غريب، لم أصدق أنني في طريقي إلى حيث تقيم " أمال" وفي مهمة تجارية،" سعيد" تنبأ أنها قد تستأثر بما له صلة بالنشاط التجاري، إذن فعليّ أن أبدو في صورة التاجر المحترف المالك لناصية متجر ضخم بضواحي " بغداد" العباسية.

لكن؟!

من أثبت أن "أمال" تفكر بمنطق المتهافت على صرير النقود؟ من؟ من يدري قد تمتعض لامتهاني حرفة التاجر؟ فالتاجر مناقض لأسمى صفات الإنسان المحب، أه لو أتيح لي أن أفاتحها لأطلعها على جلية الامـــــــر بوضوح، وأحيل عليها صلاحية إصدار الحكم الذي تراه كما لو كانت التاريخ ذاته.

إن الذي يحب فيّ غير ظروفي، إنما يحبذ فيّ صورتي المزيفة المستعارة فقط، والحب إن لم يتكيء على حقيقة صاحبه يصير بدوره عاطفة مزيفة تقام باسم سلوك إنساني نبيل.

كل شيء يبدو وديعا في هذه القرية، إلى ذلك لاريب أن بعض قاطنيها يعاني أزمات متفاوتة الخطورة، جباه معفّرة بسماد الحقول، عيون متأصلة الطموح، عضلات مسخرة لمقارعة الطبيعة المكشّرة عن أنيابها، كلها تعكس بصدق ثقل المعاناة شبيها بأعراض تشنجات المخاض الأول.

" حليم يبدو أن لك مهمة غير شحن البضائع؟!"

بادرني " خليفة" وهو يحادث تاجر الجملة على انفراد الحاج" مالك"، وأرسلت زفرة قوية دون أن أنبس، وأظهرتُ تحفزا للقيام بأي عمل قد يوكل إلي إنجازه. وأكد " خليفة":

" حليم ساعد الحمَلة علّنا ننتهي يا أخي"

وبخطو متحفظ مثقل، انضممت إلى صفوف الحملة منخرطا في شحن البضائع التي أدرك جيدا سبل تمريرها رغم ورغم.

صورة معقولة في نظري، صورة المغترب الذي يتضاءل شعوره بالغربة لمجرد أنه لم يعد منبوذا بمفرده.

ولكن؟!

قد تراني " أمال" على هذه الصورة!

تساءلت في قرارتي في صمت، وفي صمت دائما.

هيه يصير مشهدا عالقا بذهنها لا يريم، وثيقة حياتية في غير رتوش.

" أه كيس السكر في هذه المرة ثقيل جدا يكاد يهوي بي!"

قد يكون دزينات رصاص من يدري!

ما يثيرني حقا أن ترى فيّ " أمال" رجلا يكدّ لإعالة زوج غيرها.

" يا لفضاعة الأحكام الظاهرية"

الآن فقط أعترف أنني إنسان مبتدع، لا يتقبل مني الوجود اصطناعا يود لي أن أتبدى فيه للأعين، رغم أن منطق الأشياء لا يريد للمظهر بمنحى عن التفكير انسجاما، وإلا ما سر مصادفتي شقيقة "أمال" في هذا الوقت بالذات؟ " حورية"، إنها فعلا هي في سرب من ندائدها تتألق بنظراتها الحانية وبسمتها المستديمة، سألوح إليها، بل أهرع لولا ضآلة خلفية التعارف، قد تكون "أمال" من بين المحجّبات؟

" حليم واصل حمل الكيس"

تهكم متعمد ولا شك من "خليفة" الذي أخذ يمسح على شاربيه اعتدادا على مرأى من حمائم القرية الغافية، وقهقهت في بله وقد علقت:" لعله يثبت لهن أنه تاجر!".

" كانوا أسودا ضواري لم يسبق لواحد منهم أن رفض فتاة، كيف يرفضون والمرأة أهم ما يتمنون؟"، أزيز كلمات والدتي يشتد بخلدي فيحدث اصطداما مهولا بموقف "خليفة"، كل شيء فيّ في " حليم"

ينذر بالانفجار، رغم هذا تبقى الحقيقة المؤكدة أنني من المستبعد أن أنفجر.

وخمنت أن الفتيات قد يتسألن عن الشهم المنتصب في اعتداد إلى جانب حاج مالك الأغواطي، دون غيره من ضيوف القرية، لا لشيء سوى لأنه حين تذكر أسمأء اعتاد الخيال الشعبي رسمها بأحرف بارزة، حاج مالك الآغواطي، حاج عامر، الشيخ الغوثي، تندثر حروف الأسماء المغمورة بطبيعتها على نحو يصعب فيه استقراؤها.

الحاصل أن السرب تلقفه أحد آفاق القرية، فتوارى عن الأنظار دون أن يخلف من حمائمه جريحا ينتفض فيما يبدو. عملية الشحن بدورها تشارف الانتهاء وقد وددت لها أن يتطاول زمانها إلى أبعد حد ممكن، فقد تُشعر" حوريةُ" شقيقتَها بشخوصي إلى القرية، وقد لا تتأثر هذه بصورتي المعفرة

التي كنت عليها منذ حين، وقد وقد.

شعوراعتيادي يموج بتنبؤاتي، ينفخ في شبح عامل الإخفاق الممض الذي أقارعه مع سابق الاعتقاد بغلبته كغول الأساطير، عامل غير متجسم وهذه الصورة هي وحدها

سر قوته المتناهية، يتبدى في أشكال وهمية متعددة، والدة، حاج عامر، خليفة، الشيخ الغوثي، وأحيانا في مظاهر خارجة عن قدرة الحدس والشعور.

" سي خليفة "

" نعم"

"أود زيارة بعض الأقارب"

" نحن في مهمة محددة الظرف والمكان كما تعلم؟!؟

" أعرف"

بتسامح متكلف: " لك ذلك على أن تسرع"

في حقيقة الأمر ليس هناك أقارب أشرئب لزيارتهم، كل ما هنالك بعض التسكع أقضيه بأنهج القرية المحببة إلى نفسي.

خليط من الرغبات المكبوتة أخذ يتطاول على الصدر نحو الإفضاء، ما الضير لو اشتغلُ بمتجر حاج مالك الأغواطي؟

أليس في تكافؤ نوعية الحرف ما يبيح تغيير الأمكنة؟ حمّال، وكيل متجر، حرفتان مترادفتان في الواقع تماما كترادف لقب ما بتاجر الجملة.

يخيل إلي في هذه الآونة أن العيون كلها مركزة عليّ بحثا عن وجهتي، وجه الشبه بين النظرات الضامرة أنها تتزحلق على جنبات الهندام الغريب دون رغبة في النفاذ إلى ما ورائياته المضطربة.

مع ذلك يعنّ لأصحابها أنهم أخذوا صورة كافية عن الشخص الذي يجوس خلال الشوارع الغافية.

طنين الشاحنة العملاقة يترامى إلى أسماعي بصورة فجائية، يستحثني على الإسراع بالعودة، شخيرها يثير في الجزء الساكن من القرية رجة عنيفة.

" لم نتفق على التباطؤ إلى هذا الحد؟!"

"أحقا تأخرت؟"

"45 دقيقة وتتساءل؟"

وتمتمت وأنا أمسك بمزلاج الباب الأمامي: "اطمئن لم آت شيئا تخاف وقوعه".

المقاومة والاستسلام طريقان متوازيان يختلفان في العمق في الالتواء في الصعوبة، يتداخلان أحيانا يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة.

إلا أن اختلافهما في نظري يكمن في التسمية أكثر مما يكمن في الماهية، فلأكن أنا المقاومة وليبق عمي "مومن" على سبيل المثال رمزا للاستسلام، ما الفرق بيننا إذا ما استثنيت معادلة تكبيت الضمير أو محاولة تدجينه؟!

" هيه حليم فسحة رائعة ولا شك؟"

تساءل الشيخ الغوثي وقد تصدر باب المتجر بقامته الفارعة:

" كله من فضلكم يا شيخ"

" في الأسفار فوائد يا بني"

وتنهدت دون أن أجيب قاذفا معطفي على كتفي، مواصلا خطوي المثقل نحو المنزل دون إسهام في تفريغ الحمولة، وبادرتني الوالدة:

" عدت خالي الوفاض!"

" وماذا عساي أحمل؟"

وقذفت بزفرة حارة:" كان الواحد منهم لا يؤوب إلى المنزل إلا وفي حوزته حمل بعير"

الإضراب عن الكلام إجراء مناسب إذا ما أريد بهذا الأخير غاية استفزازية صرفة، أشعر أنني منهك، قواي خائرة من جراء العمل الشاق الذي اضطلعت به طوال اليوم، الحمَلة تقاضوا أجورا رمزية كتعزية في جهودهم المستنزفة، في حين تلقيت اطمئنانا من "خليفة ":

" سيضاف أجرك إلى الحساب"

الحساب دين مهذب اللفظ، والوالدة المحترمة تود لي أن أصطحب حمل بعير، و"خديجة" قد تتميز غيظا من سفرة عقيم اتجاه وكر "أمال".

رغم أنني في الواقع غير قابل للكيل بالمرة، فإن الكل يزنني بمكياله الخاص.

الطريقان لا يلتقيان البتة رغم أنهما يتوازيان، يختلفان في العمق يتساويان في الالتواء والصعوبة، يتباطنان أحيانا يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة.

أمر لا يشغل بال " حليم" إلا لماما، يتخيلني في خلو تام من النوازع، مشلول الوجدان أفوقه ارتقاء في سلم التجلد، أصدر في حقي أحكاما متفاوتة القسوة، بلفافة السيجارة قذفت إلى المنفضة الزجاجية الملقاة على منضدة المكتب، في جلستي اعتدلت.

وضعيتي في الحق نوعا ما تتميز عن وضعيته المسكين، فأنا أكملت تعليمي الثانوي رسبت في نيل البكالوريا، أخفقت في اجتياز الجسر الرهيب الفاصل بين الحياة الحقة، والموت المعنوي لدى الطالب.

يومها كنت في المدينة لقد ولدت هناك من أب معتبر المكانة، حصده الموت منذ سنوات خمس خلون، فأصبح لزاما عليّ ووالدتي وشقيقتي أن نقيم بقريتنا الأصلية.

يا للغباوة!!

لم يستقر بروعي يومها أن رحلتنا إنما هي منحى معاكس لحركية النزوح الريفي نحو المدينة، وتلكأت في شوارعها الضيقة أشهرا تعرضت خلالها لـقرقعات الملامة والتأنيب.

"فوّت عنك أكثر من فرصة للشغل"

" ماذا عساك تمتهن في قرية كهذه؟"

"أنت لا تحسن العمل الفلاحي والرعي!"

" أتهاجر إلى منطقة هجرها قطينها؟!"

أجمع القرويون على تهويل الموقف، فأوجست ووالدتي خيفة.

" أترانا أخطأنا بمجيئنا يا سعيد؟"

" لا أدري يا أماه"

" أقادر أنت على التوظيف؟"

" قابل للتجربة"

" اذن سأنصرف إلى بوداود"

"بوداود" المتقاعد كان رئيسا للمؤسسة الكبرى في قريتنا قبل حاج عامر، ولجأت إليه هربا من خطيئتنا، وقبل بتشغيلي على مضض، أه لو يدري " حليم" أنني بعدها

مباشرة أحببت " نعيمة" ولا أزال أعبد خفتها ودلالها، إذن لبارك هذا الحب المفاجئ أو اتخذ منه موقفا عدائيا.

علّه يذكر ثورتي على إشاعة زواجه منها؟ المسكين يخالها ناجمة عن موقف أخلاقي بحت، فأنهمك يزيل اللبس ويلعن الصدف.

في هذه الأثناء وأنا في خواطري أذكر الصدف، وفد عليّ " حليم" بمفرده كعادته يصاحبه سهومه، وثقل حركاته ومله الجلي وكأنه مضاف إلى مركبة الوجود يودّ التنصل منها، بادرته:
" عهدي بك تحترم كل صدر ينطوي على بذرة تغيير"

" وهذا دأبي"

"وإذن"

وتنهد:

" لا أتوسم ملامح التحديث في أي وجه يقابلني غيرك، مادام لقواعد العادة هيمنتها على كل شيء، مسميات الأشياء لا تتضمن أي إيحاء"

" إنك مفرط في تشاؤمك"

" ليس إلى الحد الذي تتصور"

" وفيم التشكك في منطق الأشياء والناس؟!"

" لا أتشكك"

" حليم ما بك واجما؟"

"لا لشيء"

دوافع الارتياح أبدا متكلفة، مصطنعة على النقيض تماما من حوافز التذمر والاستياء، الأولى ندرة كالسلوك القويم، والثانية طافحة الكيل كشيوع المضاربة والنفاق، كذيوع المصلحية.

" يبدو لي أنك واحد من رواد البحث عن تعليل الظواهر السلوكية، هكذا تريد أن تضفي على نفسك أو قد تكون تلك حقيقتك يا حليم"

وتنهدت ثانية وثالثة:

" حسبي أن أعلل متغيرات إخفاقي"

" إخفاقك جزء من أخفاقات لا تحصى"

" قد تكون أقل حدة"

وفاجأني حقا بسؤاله:

" حليم؟! ما رأيك فيمن يُبتلى بحب واحدة على شاكلة نعيمة؟!"

وانعكست المفاجأة على قسماتي، لم أكن أتوقع من " سعيد" أن يصارحني وهو الكتوم، ذات مرة بمثل هذا ولكن للكبت حدوده فيما أعلم.

" الحب ليس بلية، إنه موقف يصدر عن قناعة ككل المواقف"

" هذه مغالاة!"

وأضفت على التو:

" دعنا في صلب الموضوع "

وعاودت تنهدا مسموعا:

" حب نعيمة يا سعيد كالسلاح المهرّب، كسر الجريمة المقترفة ليلا لا ينبغي أن يتجاوز صدر صاحبه، لذلك يبدو الزواج من " نعيمة" سابقة خطيرة لا تفقد المقدم عليها صفة الرائد"

كلمات " حليم" توافق ما يتحرك بداخلي من مشاعر نحو " نعيمة"، تضطرب، تصير أشتاتا، تتقولب في شكل هاجس ملحاح الرغبة في إطلاع " حليم" على جلية الأمر.

لكن؟!

كلماته المنطقية تلك، لم تُزل كوامن تحفظي، سيثور ولا شك، سيعاتبني بالألفاظ ذاتها التي سبق أن عاتبته بها حين افتعلت الثورة على شائعة تزلفه من بيت "مراد"، سيقول جُنّ الصاحب، تصابى عقل القرية.

كلا إن "حليم" يؤيد كل طارئة تحل بالقرية، هدفها التغيير في السلوك، في القواعد الحياتية الرتيبة المملة.

"الزواج من " نعيمة" سابقة خطيرة لا تفقد المقدم عليها صفة الرائد"، كذلك قال " حليم"، لقد كان وهو يـواصلها حكيما صينيا يضع واحدة من قيم الحياة الخوالد، القناعة التي تشدني إلى " نعيمة".

"حليم إنني أحب نعيمة!"

وقابلت الأمر باعتياد:

" منذ متى؟"

" منذ سنين"

" أعرف"

وصعقت حقا:

" تعرف ؟! ممن ومتى؟"

من لا أحد ومنذ عاتبتني بشأنها"

" وكيف؟"

" وقع كلماتك آنذاك كان يتجاوز بكثير، مجرد الإشفاق على صديق من أن (يتلوث)"

وسويا قهقهنا.

" أي حدس، أية قطنة؟؟"

وتجاهلت إطراءه لي بقولي:

"سعيد لا أكتمك أن أحزاني ساعتها تضاعفت عن ذي قبل"

" مم؟"

" خيل إلي أنني افتقدت صداقتك وإلى الأبد، لقد أضفتك إلى عداد الأخرين، وتصورت الجميع يجابهني، ولو اختلفت جبهات المواجهة،

بعضكم يقاتل ميسرة العقل، وبعضكم ينازل ميمنة القلب، والباقي يهاجم الأعماق"

لولا عجزك عن مصارحتي بهذا الأمر لأعددتك شجاعا حين أحببت " نعيمة" بكل ملابساتها، إنك في قرية لا تؤمن إلا بالأمر الواقع، وهذا ما يجعل التحلي بكتمان أمر شكليا، ومن السذاجة بمكان.

إن تضخيم مساوئ " نعيمة" إن هو إلا انخداع إسقاطي، يمهل الزواحف الحقيقية فرصة تلغيم الأنقاض، إنها إليك أقرب منها إلى الزواحف، فهي الأخرى عينة من عهد الرقيق المجازي المحتفظ ببقاياه.

وامتنعت عن مقاطعته عن قصد كيلا أخلخل أفكاره، فهي تترى، تنزل شفاء على جراح عميقة في نفسي المرتابة، وواصل، وواصلت الاستماع.

" إن صفة الضحية ليست بمرادف لصفة القتيل فقط كما يغلب على تعبير رجال القانون، وهذا ليس بعيبهم ما دامت القوانين البشرية ذاتها تعابير جمالية عن ظروف الإنسان."

وأشار عليّ " خليفة" بتخفيف السرعة، لأن قافلة من الشاحنات كانت تتوالى على امتداد الطريق.

حين انصرف "حليم" إلى عمله قبعتُ بالمنزل، أين اعتدت على قضاء عطلة الأسبوع، وكنت أردد بين الحين والأخر" إنها إليك أقرب منها إلى الزواحف، فهي الأخرى عينة من عهد الرقيق المجازي المحتفظ ببقاياه"

وأشفقت على " نعيمة" أن تصنف في خانة كالتي وضعها فيها " حليم"، واعتبرت هذا النعت من شطحاته الشبيهة بالصوفية.

" حليم " لا يتمتع بعطلة الأسبوع أو السنة أو العمر، كبقية شغيلة القرية، إنه شبيه بموقوف لا يتسنى له إذاعة مكنوناته للأخرين.

طريقان يتوازيان يختلفان في العمق، يتساويان في الالتواء في الصعوبة يتداخلان أحيانا، يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة لا تنتهي.

بحذر أسترق النظر إلى وجدانها النابض بالمسرة، الأكيد الثقة في الحياة الطموح إلى الاختلاء بها يراودني، لأدرك سر حبورها المستديم، بشر يطل من عينيها، ابتهاج يستأثر بصدرها فيرسل انعكاسا على محياها في غير ايماء، بخطو محتشم دنوت منها، بصوت خافت همست إليها:

" مريم".

وأجهشتُ بصورة لاإرادية، وأقبلتْ عليّ متأوهة:

" خديجة ما بك؟ ألى هذا الحد"

جففت سواجمي مختتمة ثورتي المكبوتة بتنهيدة موجعة، كما لو أني أسحق أعناق الغيظ المشرأب بصدري.

" تقضت سنة كاملة على انتظاري مثل هذه الخلوة، من عساي أفضي إليه

بمكنوناتي غيرك يا مريم؟

وعاودني الإجهاش وتبللت رموشي الذوابل، وحاولت أن أتبدى رابطة الجأش كيلا أحرم نفسي متعة اللقاء.

" أتبكين؟"

" وما عسى البكاء أن يفعل في وضع كالذي أعيشه يا مريم؟"

وقفزت:

" أي وضع تعنين؟"

" زواج صوري أتعذب بين قضبانه!؟

وبغرابة مفضوحة:

"صوري تقولين!؟"

" هذه صفة العلاقة التي تربطني بشقيقك؟

وواصلتُ:

"إنه يمقت في شخصي صفات أبجلها، الأدب، الاحترام، تجنب المواجهة، أهي عوامل كراهية حقا يا مريم؟"

وضحكت على مضض:

" حليم منذ صغره مبهم مخيف متجهم على وسامته، على النقيض من زوجي " علي" تماما، تصوري أنه لا يترك التفكير فيّ إلا ليفكر فيّ من جديد، لاهم له إلا مريم"

وازداد تذمري بقوة وأكدت أسفي في صمت، أعرض عليها مأساتي لتساعدني على حل، فإذا بأحاديثها تتكثف حول علاقتها الغرامية بزوجها في شيء من التبجح وإلهاب مشاعر الغيرة، ثقي يا حبيبتي أنني لا أغار بطبعي وقد يكون ذلك سر إخفاقي الممض، لا أغار إلا من " أمال" لأنها تتمدد بقلب أنتسب إليه بشكل أو بأخر.

" هيه الحظ اللعين"

" القضية ليست حظا سترين موقفي منه فور لقائي به، أي حليم هذا؟"

ووثبت عليها في ابتهال:

" أرجوك لا تفاتحيه سيدرك أني شكوته اليك"

" وما الضير؟"

" ذريه يعتقد إنصافا في نفسه"

" وإلى متى؟"

" إلى حين زيارة والدتي، قررت الرحيل بمعيتها، شقيقك لن يبكيني، تأكدي سيرحب بموقف كهذا أيما ترحيب"

" إلى هذا الحد يكرهك؟ والسبب؟"

" رحيلي سيفسح في وجهه مجال التقرب من نعيمة "

وقفزت " مريم!":

" نعيمة ابنة زبيدة؟؟؟!!!"

" أجل"

" وما خطبها؟"

" إنها حبيبته"

" هذه مغالاة قد تكون "أمال" محتمل؟"

وشعرت بمثل حشرجة تمور في صدري يثيرها ذكر "أمال"، وقلت راغمة:

" ليتها تصير البديل عوض نعيمة الفاسقة؟"

" حليم لا يركب رأسه إلى درجة الانتساب إلى نعيمة وهو العفيف؟

وتنهدت:

" إنه ينحت لكل تصرف عذرا، تصوري نعيمة في نظره ضحية!"

وضحكت بمرارة:

" ضحية؟! ضحية غريزتها فعلا"

في نرفزة:

" بل ضحية ظروف كما يدّعي"

وقالت " مريم" كأنها تطمئنني:

" ليس هناك بديل تأكدي"

وانصرفت كما لو أني أرفض هذا لإصرار الذي يجانب الواقع المتحرك من حولي.

أعترف في دخيلتي أن انحيازي الكلي إلى جانب " خديجة" دافعه الوحيد فقط هو الإشفاق، فموقع" حليم" لا يستحق الشفقة، حسبه أنه رجل يحوز قوة الفعل.

تبرم " خديجة " في تصوري لا يعدو كونه جهلا بأساليب الحياة الفطرية لدى " حليم"، فالزوج وصيد مقفل بإحكام طالما افتقدت المرأة صفة المزلاج القابل للنفاذ.

إنني أكيدة الشعور بعجزي الكامل عن التحكم في ألية " حليم " الوجدانية، حيث أتصور نفسي محل " خديجة"، رغم ذلك أود لها أن تعتزم إتيان شيء ما فقط، فقط.

أن تقاوم من أجل البقاء وإلا أصبحت بكل ثقل معاناتها مجرد ظرف يتجاوزه " حليم"، دون أن يخلّف طيفا للذكرى في خلده.

وحين انصرفت " خديجة" نحو المطبخ تحتفظ بوجومها، أوحى إليّ منظرها بسؤال محير:

" أمال هل هي منتهى آمال حليم؟!"

وارتمى "بشير" بين أحضاني يقبلني وقد عاد من الدراسة لتوه، ووددت في هذه اللحظات لو التقي " حليم" لأعرف رأيه في" أمال".

حقيقة قبل زواجي لم أحاول دس أنفي في مشاريعه الخاصة، كنت أبدو كمن لم يُحط بذلك إلا أنّي الآن أشعر وكأنني أتوفر على صلاحية التدخل المباشر في قضاياه الجد خاصة.

لو صاحبني "علي" إذن لتدخل على التو في تسوية الأمر بين " حليم" و"خديجة"، لكن من الصعب بل من العيب، أن اصطحبه في زيارتي الأولى بعد زواجي.

الحلم لا يستقر على شكل معين، يتميّع، يلين، يتحوصل في سائل رطب فان، ذراته تتشكل، تتجمد، يأخذ صورة شبه نهائية، رخوة في صلابة الكلس.

أدفع الباب برفق ألج الغرفة، غرفتي إلى جانب " سعيد"، أخلّفه وقد جلس، أنصرف نحو المطبخ أخاطب " مريم":

" صباح الخير"

" صباح الخير، سعيد بمعيتي".

وبدا عليّ عدم اكتراث، "سعيد" لم يعد في وسعي أن ألقاه وقد أصبحت حليلة، المرأة شيء ثان بعد زواجها، كذلك أكدت حماتي مرارا.

المرأة شيآن اثنان؛ طريقان يتوازيان، يختلفان في العمق يتساويان في الالتواء في الصعوبة، يتداخلان أحيانا يفترقان شيئا فشيئا ليمتزجا من جديد في صيرورة غير متناهية.

الوالدة تقتحم على " حليم" و " سعيد" مجلسهما الانفرادي:

" صباح الخير خالتي مسعودة"

" صباح الخير كيف حال سعيد؟"

" بخير"

" وحال صاحبك؟"

" من؟!"

" حليم"

ضحكا:

" أعتقد أنه بخير"

وتنهدت:

" لا أظن ذلك"

" وكيف؟"

والتفت على التو نحو الوالدة مؤكدا مقولة "سعيد":

" إنني بخير يا أماه"

" وأين أنت من الخير يا ولدي؟"

بصيص من الصمت خيّم على المكان في انتظاراستهلال الوالدة حديثها:

" لقد اكتشفت العجوز ذهبية بشأنك أمورا مذهلة!"

في ذهول:

" ماذا؟"

" طعاما وشرابا، كتبا، مسبوكات دُفنت بالمقابر المهجورة!"

" ماذا تقولين؟! هل عرضت أمري على العجوز ذهبية العرافة؟"

" وما الضير في ذلك يا ولدي؟"

" كله عيب، كله عيب"

ضتُ أريد الانصراف لكن " سعيد" أقسم عليّ بالجلوس، وقام فأجبرني على العودة إلى ث كنت، وهو يخاطب الوالدة:

" حليم لا يؤمن بالسحر والجن يا خالة!"

" ومن غيرهما أذهل عقله وأجبره على التعلق بطيف أمال؟!"

" أمال لا تعرفه فضلا عن أنها تحاول الاستحواذ عليه بهذه الطرق، إنكم تظلمون الفتاة"

صدق:

" ولكن العجوز ذهبية رسمت أوصاف أمال؟"

وتدخلتُ:

" وأيكما ذات معرفة بأوصاف أمال؟"

صادقة:

" الجن تهمس في أذنها، أم تعتقد أن الجن أيضا لا تعرف أمال؟"

فهت الوالدة قهقهة متعبة استخفافا بمعلوماتي الضحلة في الموضوع.

واستطردت:

" على كل حال لقد شارفت قضية أمال نهايتها!"

ها كما لو كنت أقرر حكما نهائيا بشأن قضية مزمنة.

" ما معنى ذلك؟"

" أمال أصبحت خطيبة "

" خطيبة من؟"

" واحد أكلت دماغه بعقاقيرها كما قالت العجوز ذهبية!"

" ومن هو؟"

" لا أدري، لم أتطفل بسؤال في أمر لا يهمني"

ممت أن أقول إنه يهمني، لولا أن الوالدة أصرت على الانصراف هروبا من ذكر "أمال" يها، إنها لا تختلف كثيرا عن القاضي وهو يجمع أوراقه بعد بته في قضية عالقة.

ي حدة صادقة وجهت سؤالي وقد تحركنا في طريقنا إلى المتجرسعيد وأنا:

" من ذا الذي ارتضته أمال زوجا يا سعيد؟"

" قد يكون واحدا من أبناء حاج مالك، أم من عساه يكون غيرهم؟"

" تعني أنها ستنتسب إلى أسرة الزواحف؟"

" مادامت شيئا نادرا كما تصفها"

وتنهدت في مرارة:

" كل نادر من نصيبهم وحدهم بالضرورة؟

" ما داموا يتوفرون على الأندر وحدهم"

رعت بالوقوف كما لو صدمني تيار كهربائي:

" سأقف دون قيام هذه المهزلة"

سحكتُ لجنون صاحبي:

" هل جننت؟ أتسمي زواج أمال مهزلة؟!"

" وأية تسمية أجدر به غيرها؟"

" حليم عهدي بك عاقلا"

" بل مبالغا في تسامحه التافه"

" وما دخلك في زواج كهذا؟"

" رفضها رغبتي"

" إنها لا تعرفك"

" هكذا تدّعي"

" أترغمها على الزواج منك وأنت حليل أخرى؟"

" لم أقل بهذا"

" وإذن؟"

" سأحذّرها من مغبة ما هي مقدمة عليه "

" باسم ماذا تخاطبها؟"

" باسم منطق الرفض"

" الرفض؟!"

وأكدت بمرارة:

" الرفض أبسط درجات سلّم التصدي وقد يكون أنجعها"

في أثناء الطريق ناولني " حليم" مفاتيح المتجر، بينما واصل خطاه المثقلة صوب أكمة القرية المحاذية للوادي المبالغ في الانحدار، كان ذلك دأبه كلما تلقى نبأ جديدا في موضوع " أمال" حتى لكأنه يطلع هذه الأكمة على مستجدات أحداثه بتفصيل.

بتأثر شديد لإمره ولجت المتجر، تهالكت في تراخ وتذمر على كرسي منتصب بإحدى زوايا المتجر لا يؤكد صفتي كعامل به، وخطر لي أن أطّلع على محتويات الدرج الأمامي حتى أتأكد من مختزَناته النقدية، أخذت أحصي الدنانير المجمّعة هنا وهناك، وبعض الأوراق النقدية، إلى جانبها بداخل الدرج وُضعت كومة من الأوراق العادية في شكل مخطوط، أخذت أتصفحها بإمعان شديد:

((أمال حبيبتي يقولون: إن الحب جبهة جانبية في معترك الحياة، وأقول إنه كالفن توشّع به صدور الأغراض الحياتية الأخرى، فيظل صاحب الفضل عليها لا المفتقر

إلى كمالها، إذ في وسعه النماء في غنى عن هذه الأغراض دون ان يجد أيها القدرة على الاستغناء عنه))

" رومانسية صرفة"

علقت دون أن أتم محتوى المخطوط.

((رغم ديمومة اعتقادي بذلك، اضطررت تحت قساوة ظروف شتى لاعتناق أفكار مبهمة دخيلة على عوالمي الخاصة، متناقضة مع دخيلتي الخالية في حقيقتها من كل لبس))

ساخرا قلت:" إطراء ذاتي لم أعهده فيك من قبل يا حليم "

((يقولون: إن الزواج شريط تدشين بالنسبة لكل علاقة تحدث بين الجنسين، وأقول إنه الخاتم الذي يتوج هذه العلاقة، رغم ذلك هو في نظري مجرد سياج شائك أريد للقلوب البشرية أن تستنزف نبضاتها ضمنه، مع جهل مسبق بمدى أهميته، إنه في اعتقادهم يقيها هواجر الفراق، والواقع أنه يحكم عليها بانتفاء الانصهار))

" فكرة مبالغة في التطرف"

هكذا خطر ببالي.

((إنني مطلق الايمان بقدرة الحب على التواجد بعيدا عن كل حاجة إلى سبكه في جعبة الاهازيج، بقدرته على البقاء خارج دائرة الضوء، ذلك لأنه فلسفة قائمة بذاتها لا يعوز اكتمالها انعدام الديباجة لكي ترى النور))

وعلقت محتجا:

" هذه دعوة هدامة!"

وباستدراك أضفت:

" يقودها متزوج ويعارضها عازب يا للمفارقة "

وخيّل إلي أن " حليم" يجيبني مدافعا بقوله:

"سأسمم أفكار أمال ضد هذه الزيجات"

((إنني أؤكد لنفسي أن الحب هو الطبيعة الغنية عن أزياء تحيكها عقولنا لتسربل بها قوامها الممشوق، قصد إخفاء محاسنها لا لشيء سوى لتبدو مجرد شبح يدين بنزعة التقمص من أجل خلود مزيف))، وأكدت لنفسي:

" هذه طعنة أخرى للقيم"

وبدا لي وكأني أحاور" حليم":

" كفى كفى ما قلّ ودلّ".

وخيل إلي أن جوابه كعادته كان عنيدا:

" تلك دعوة سالفة إلى السطحية ومحاربة روح التحليل والاستنباط"

فعلا لقد كان إلى جانب هذه الكومة من الأوراق، كومة أخرى لا تقل من حيث الحجم:

((أمال، إن انتفاء مقياس تكافؤ طرفين في الإخلاص للحب، لا يمنحني صفة المحب وهو مقياس منطقي ضروري التوارد، فالنفس المستهامة لا ترتاح إلا حين تطمئن إلى إخلاص شريكها في المعاناة وهو ما يعوز وضعيتي، عبء هذه المعاناة يتناقص حينما يوزع على الطرفين بالتساوي، تماما عكس تضخمه ساعة ينفرد بحمله دون الأخر أحدهما))

وتدخلت متسائلا في غرابة:

" ولكن أين أمال من طروحاتك هذه؟!"

وواصلت استنطاق المخطوط:

((إن الممرات التي تنسابين معها في مختلف الأطوار والأزمنة، إن هي في نظري سوى طرائق فرعية لا تؤدي إلا إلى طريق رئيس هو حبنا، فبقدر ما تظنين أنها ستأخذك بعيدا عنه هي في واقع الأمر تقربك منه، لا لشيء سوى لأنه حب وهي نزوات ظرفية مجبرة على الاضمحلال يوما ما))

مجموعة من التساؤلات المتناقضة تنتابني وقد أنهيت ما ورد في المخطوط السري.

" لكأني بها تبتسم معجبة لو أدركت ما في الكتاب؟"

" معجبة أم ساخرة؟"

" في وضعية كهذه يتسامى الإعجاب بالسخرية "

وتنهدت إشفاقا:

" ذروة مأساة حليم أن أمال في حال افتراض معرفتها به، لا تتصوره إلا زوجا لخديجة مستقر البال، سعيدا إلى أوضاعه الزوجية"

" كتابه قد تخاله معاكسة جريئة لا أكثر"

لوحة العدّاد الزجاجية إلى جانبها تُرتسم إشارة منذرة بالخطر، الخطر يداهم المحرك إذن وإلا ما كانت هذه العلامات المتتالية لترتسم على الزجاج في عناد.

" خليفة" يطلب إلي الاستيلاء على المقود، وتتأوه " أمال"، ويُعلّق " خليفة" مغتاظا:

" سيارة أخر طراز ينذر محركها بالخطر!؟"

أجرجر رجليّ، سفح الأكمة هذه الأمسية أشعر وكأنه أحدث مسالك جديدة صعبة التسلق، قدّ كهوفا ومغاور سحيقة الغور لم أتفطن إلى وجودها إلا خلال هذا المساء المشحون، مرتفع الأكمة استبدل بأعشابه هشيما متطايرا تذروه رياح الخريف في كل اتجاه.

قريتنا الغافية تبدو كأنها فقدت بعض تقاسيم واقعها اليومي، الشيوخ غير متواجدين بمصلاّهم العمومي الذي يتوسط ساحتها، متجر عمي الغوثي مغلق على غير عادته، بستانيو الحقول ليسوا بمقيمي تجمعات تختلف في الحجم والتباعد كما الحظ اليوم.

الرغبة تعاودني إلى المتجر، إلى السجن الموصد، إلى قمقم محكم الأغلاق وقد غادرت مربضي، دون أن أعرف بالضبط كيف انخرطت في بكاء مسموع تجاوز بكثير حد الإجهاش والمقدمات المعتادة، ودون أن أكفكف سواجمي سألتها فيم سيلانها؟ فلم تجب. انتهرتها بكل قوة دون أن أفلح في إقلاعها

وأطللت على " سعيد" محتفظا بتجهمي، وهالني عدم استغرابه لمظهري فربّت على كتفي، وانصرف دون أن ينبس.

على هضبة صخرية، الحلم يتهاوى بدون أجنحة، انفجاره المهول يتسبب في تشويه رسمه الكاريكاتوري الساخر ذي الحواشي البرّاقة، محاولة انتفاضه يعالجها تصاغر فاندثار أبدي.

في عناد ينتصب من جديد، يتعثر، يتحفز للقيام، ينشده، يتجندل، لقد تفطن إلى إصابته أثناء الزحمة الرهيبة بشلل نصفي ميئوس من تداويه.

" مساء الخير عمي الشيخ"

وبحلق هذا بعينيه الزائغتين وكأنه يكتشف وجها جديدا يتراءى له لأول مرة.

" عمي الغوثي يبدو أنك غير رائق المزاج؟!؟

استفهام تطفلت به على غير عادة مني، لقد كنت صادقا في رغبتي معرفة ما يزعج التاجر الكبير.

"أرسل بكمية من الطماطم المصبّرة إلى منزل حاج عامر، لا تنس إنزال البضائع الواردة من وراء الحدود إذا كان منتصف الليل"

الشيخ الغوثي على غير عادة منه انصرف محتفظا بغضبه، متجاهلا اسئلتي الفضولية، وما أن توارى عن أنظاري حتى تصدرعتبة المتجر ابنه " خليفة" بقامته التي يُخال أنها استرعت انتباه فتيات القرى المجاورة، وبادرته:

"مساء الخير سي خليفة"

وتضاحك مرددا بسخرية لاذعة:

" سي خليفة !!"

ودنوت منه بنظراتي وكأنني أود النفاذ إلى أعمق أعماقه:

" ما الذي يزعجك يا سي خليفة؟"

وأضفت حين تباطأ بالجواب عمدا:

" عمي الغوثي هو الأخر مضطرب البال؟

وقال " خليفة" متنهدا:

" لابد من الاعتراف بصعوبة الإحاطة بمراميك يا سيد حليم!"

" أنا؟!"

" أجل"

" هل ما يحيركما هو أنا؟"

وتضاحك في حنق:

" ومن عساه غيرك؟"

واقتربت منه:

"أفصح، ماذا هناك؟"

وبعد صمت طويل كان لدي بمثابة فترة استفزاز:

"يا سيد حليم لقد شكلت موضع ثقتنا، أطلعناك بدون تحفظ على جميع أسرار نشاطنا التجاري، اتخذناك واحدا منا، وها أنت ذا تجبرنا على الحيطة منك في نهاية المطاف!إبل ربما اعتزال أمرك نهائيا، لقد بلغنا أنك تسعى لإقامة تنظيم لتجار القرية"

وقهقهت.

" ومن أنا حتى أقوم بذلك؟"

" ألم تتناوله في بعض أحاديثك؟"

" أحيانا أشكو"

" طلبك ضمنيا يومئ إلى وضع غير سليم يحتاج إلى تنظيم"

وقلت في تثاقل متعمد وقد كان لهذه القذائف مفعولها في نفسي:

" هذا بعض ما قصدته"

" دون شعور منك أنك تأتي سابقة خطيرة على حرية التجارة

في هذه الأرض؟"

" غرضي لا دخل له بالحرية أو بعدمها"

" ألا تدري أن مثل هذا التنظيم سوس ينخر كل قطاع يتوغل فيه؟"

" أعتقد أنه المبيد الصالح لإزالة الجراثيم العالقة بأدغاله"

وعاودته ضحكته الساخرة قبل ان يحتج لموقفه:

" أفكار طريفة حقا"

" الطريف هو فقط ما يناقض منطق الأشياء"

" أعترف أنك ضليع في فنون الجدل العقيم"

وأضاف حتى لا يمهلني فرصة الإجابة:

" وجدوى طروحاتك؟"

مازحا:

" إنما هي قيد الدرس"

وقد بدا عليه اهتمام أكثر تحول إلى ثائر مفاجيء:

" ستصير رئيس مجلس متجرنا إذن أبشر"

" شرف عظيم قد يكون، غيري أجدر به"

" من تعني؟"

" واحدا من رواد البضائع المهربة ليلا"

وتضاحك " خليفة" صادقا:

" مكانكم الطبيعي إثارة القلاقل إذن؟!"

وعوض أن أبتسم كما توقع " خليفة" تعليقا عما أسمع، عكست ملامحي موجة من القلق:

" ومن أنبأك بهذا؛ من أفشى أسرارنا؟!"

واكتفى بالقول:

" إنكم فعلا أغبياء"

" وكيف؟"

واستبدل " خليفة" بالموضوع غيره وكأنه يشعرني أن لا جدوى في تكلف الاستنطاق.

" قررنا إيفادك إلى متجرنا الكائن بـ (ـ) للعمل هناك"

وعاودني ابتسام:

" تفاديا للقلاقل أليس كذلك؟ على كل حال النشاط لا يحده مكان، المهم أن اقتراحكم معتمد مسبقا "

" موافق أنت على الرحيل إذن؟"

" أجل"

" هكذا بدون تفكير؟!"

" أعتقد أنه لا داعي للتفكير همّي أن أعمل، إن واحدا مثلي ليس في مستطاعه أن يختار إلا أن يعمل أو يصبح بطّالا"

" كان عليك أن تتمثل هذه الحقيقة قبل الآن"

وتجاهلته فتحرك منصرفا وقد تبدى عليه تعجب ظننت مبعثه تسرعي بالموافقة، وانزويت بداخل المتجر أتدارس الأمر بعمق وأي عمق، إن الرحيل إلى قرية (ــ) فضلا عن أنه يطاوع الإمعان في العمل، سيدنيني من مربض " أمال".

أوضاع " سعيد" لا تفضل أوضاعي إلا شكليا، المسكين فضّل صفة الزبون الدائم لمنزل " نعيمة" على أن يُقال إنه تزوج من عاهرة.

فالسلوك الذي تمجّه الشرائع، وتلفظه القوانين، يجد حقه في اللجوء إلى منطق العرف والعادة وكأنهما ـــ في نظر الخفافيش ـــ أكثر إصغاء إلى تموجات الفكر وذبذبات الوجدان.

أهرع نحو المؤسسة حيث يوجد " سعيد"، أقلّ سؤالا ثقيلا، معولا أخذ يهشّم جنبات الحلم، يطيح بها، يزيل أعمق تحصيناتها المنيعة.

عجبا "خليفة" المستهدف بأحاديثنا يحاط بوقائعها وتفاصيل هوامشها وبمثل هذه السرعة، أحاديث شبه انفرادية أيضا! هذا الحد من التفكير وصلته، بمخيلتي الصورة أخذت تهتز لا تستقر، صورة "سعيد" ووجدت ساقيّ لا تقويان على المضي في الشخوص إلى " سعيد"، لن أزوره إلا بعد التحقيق في الأمر.

ما يربطني به في نظري ليس بث تباريح الهوى، فالحب مهما اتسع مداه لم يكن يوما سوى مسألة فردية، موغلة في الذاتية، لا تتضمن قابلية الحؤول إلى قاعدة وفاق طائفي أو جماعي، لعل تجانس رؤاي و"سعيد" قد يكون أثقل وزنا في عملية تلاحمنا هذه.

لكن؟!

لكن استنباط مواطن التلاقي قد لا يهم إلى درجة يجب أن ينصرف فيها الاهتمام إلى مكان الخلاف.

فإفشاء سر أحاديثنا الليلية إلى " خليفة" أمر مفجع، ناجم لامحالة عن تعلات خلاف ولا شك.

وعلامات الخطر تتواصل تأشيراتها، إنذار أخير بتوقف المحرك عن الدوران، و " خليفة" يبدو كأنه يصارع كبار الموج.

إلى صخرة عظيمة تتوسط صخور المنحدر أسندت ظهري، أتصفح القرية بكل قطاعاتها، تحركات أهاليها، حرارة أغسطس تكتم أنفاس كل شيء فيها، أه خديجة؟! كيف ستستقبل نبأ انتقالي إلى القرية المجاورة؟

ستخاله ناجما عن رغبة أكيدة مني، نتيجة مساع عديدة، ووسائط لدى كل من " خليفة" ووالده العجوز، والده الذي اكتفى البارحة بالتعبير عن سخطه.

الطموح الذاتي وحده بلا منازع هو الدافع الأساسي لتحركاتي في نظر الكل، حتى وإن كنت أرفضه دائما، أضعه موضع الثانوي، الهامشي.

الحقيقة المؤكدة أنه من المستبعد أن أنفجر، حتى الموت سيأخذ طريقه إلى صدري رتيبا معتادا وكأن السكون، سكوني قاسم مشترك بين حياتي وفنائي ما دام كلاهما لا يتضمن بذرة للانفجار، ولو بقدر غير محسوس.

دنوت من المنزل، عدلت عنه فجأة نحو الهضبة المجاورة الشبيهة في كثبانها وصخورها الممزّجة، بسيدة زنجية، وقد ارتدت شالا أصفر يتدلى طرفاه على منكبيها، الوادي اقتحمه، بأسفله تتناثر قطعان الماشية، أشجار التفاح الاسباني تمثّل ثغرة تسلل في تخومه:

" لنعتبرها تجربة "

" لن تجد من التربة تجاوبا"

" وإن وجدت اقتسمنا مردودها"

" تفاح إسبانيا يضرب المثل بجودته"

إسبانيا تاريخ أكثر من حاضر، بقايا تفاح؟!

إن اعتبار الهم الذاتي قاعدة للتحرك، شيء مزري حقا حينما يصدر هذا الحكم في حق من لا يعير ذاتيته أدنى اهتمام، أو يربط ازدهارها بازدهار المحيط الذي تتواجد ضمنه.

ذلك فقط لأن قاعدة التحرك عند الكل ذاتية صرفة، خاطرات تندفع إلى صدري من كل صوب، أو تصدر عنه في اتجاه كل صوب، لا أدري وبشكل لا استقر فيه على رأي محدد في كل شيء.

رغبة في الشخوص إلى المتجر تلحّ عليّ في هذه الآونة، هناك حيث أعتدت على قتل الوقت حيث أريد لكل نازع إنساني أن يتراجع.

وسعيت نحوه بخطى حثيثة، مجتازا حقول الخضروات وأشجار التفاح الاسباني المحاط بسياج شائك أتقن إحكامه، وأزقة القرية الشديدة الالتواء، وددت لو أنني بالمنزل حتى أبلغ سواكنه أمر الرحيل الذي استجد اليوم، إلا أن عنف رد الفعل الذي أتوقعه حببّ اليّ إرجاء ذلك إلى حين.

لم يتطاول بي التأجيل فقد خلفت شقيقي بالمتجر، وهرعت نحو منزلنا أعتصر حثالة ما تبقى لدي من قدرة على المواجهة، وفوجئت فور تصدري الباب الخارجي بعيني " خديجة" وهما محمرتان من أثر بكاء لا أدري دافعه.

بمكاني تسمرت لا أبدي حراكا، تقدمت منها وقد كانت تجلس على فروة كبش بالردهة المفضية إلى غرفة النوم، ما كل هذا؟ وفيم كل هذا؟! "خليفة" يتخذ أحاديث السمر ذرائع كافية للإدانة، لاتخاذ قرار الإبعاد.

و" خديجة" لا تتوان في تلفيق اتهامي بالرغبة في الابتعاد، والكل يقولب عجينتي على هواه.

النبض يتوقف على مرأى من الحلم ذاته، الحلم أخذ في عبوس، ضمور، انطواء، ميوعة، تفاهة تلاش غير متناه.

" آثار بكاء؟ خديجة!"

وهي تحاول إزالة بقايا دموعها:

" لا شيء لا شيء يا حليم؟

" غريب؟!"

للمرة الأولى تداعت على كتفي وقد جلست إلى جوارها شاهقة:

" أتكرهني إلى هذا الحد؟"

" أي حد؟! يا خديجة؟"

" إلى حد هجران القرية"

" عجيب، يتخذون القرار ويسبقونه بترخيص في النحيب!"

" من من يا حليم؟! من يحاول إبعادك وأنت المشهور بالتصلب في مواقفك؟ من؟"

" خديجة لا تبالغي في تأنيبي سأرفض الرحيل، سأرفض الرحيل"

واستمر بي التفكير:

" سهّلي مهمة بقائي يا خديجة"

" ماذا في وسعي أن أفعل؟"

" من أنبأك بأمر الرحيل أقسم إنه أمر؟"

" خالتي زبيدة، وماذا في ذلك؟!"

" لقد فهمت، فهمت"

" ماذا فهمت؟"

" شبكة المؤامرة"

" أية مؤامرة؟"

" لا تورطي نفسك في هذا العفن"

الشبكة أخذت تتحدد علامات دورانها عكس الحلم، خليفة، سعيد، نعيمة، زبيدة، الكل أخذ يدور في فلك واحد، محدد الأهداف.

" سعيد " وصيد الجسر إذن!

" لن أرحل، خديجة ثقي أنني لن أرحل عنك".

المنزل غادرته في اتجاه المتجر حيث أزمعت إعلان قرار الرفض، الرفض أبسط درجات الصمود لكنه أهمها.

" لتذهب أمال إلى الجحيم، لتذهب أمال إلى جهنم"

إن الذي يعيش وضعا كالذي أعيشه حري به أن يقرر إخلاء فؤاده من أية رغبة، عدا رغبة الحصول على الرغيف النظيف. أن يترك العناد والمكابرة جانبا، أن يتفل وإلى الأبد فكرة تغييرالواقع، وتحديث العادة، وتسفيه القانون.

المتجر كان متخما بالزبائن، فإلى جانب وجوه سئمت معاملتها، يوجد خليفة وسعيد وبشير الصغير، وسلمت باقتضاب شديد وقد انخرطت في تلبية رغبات الزبائن حيث أخذ جمعهم ينفض شيئا فشيئا، إلا من خليفة وسعيد وبشير، وبادرني سعيد:

" أحقا نويت الرحيل إلى (ـ)؟!"

" نويت الرحيل إلى الجحيم"

وتقدم مني خليفة ملاطفا:

" فيم الاضطراب هل أعددت لوازم السفر؟"

كلماته تلك بدت في نظري وكأنها مشوبة بالسخرية:

" لقد عدلت عن السفر **((فلا يحزن الباكي ولا تشمت العدا))**(17)

وأفرخ فور تقولها صدر " خليفة":

" وأمال؟ أنت لا تحبها إذن؟"

وانشدهت للموقف فعلا، أمال أيضا يعرف أمرها، إنها لقرية غريبة أطوارها، رميت ببصري إلى " سعيد" فلم يبادلني النظر.

" أمال، أليست بابنة تاجر؟"

أجاب " خليفة" بلهجته الساخرة محتفظا:

" وما الضير في ذلك؟"

" ليست من طينتي إذن"

" إنك أمهر تاجر بالمنطقة كلها!"

وقهقهت مرغما:

" بل أمهر حمّال يا صديقي العزيز"

وتدخل " سعيد" بعد سكوت طويل:

" سي خليفة يعرض خدماته لصالحك"

وانتفض " خليفة" قبل أن أنطق:

" لا لا أحمل التزاما في أمر ميئوس منه كهذا"

وتساءل " سعيد" في سذاجة"

" ميئوس منه؟ وكيف؟"

وانصرف" خليفة" دون مراعاة لتساؤلات" سعيد"، ولست أدري كيف؟

وتناسيت أمورا كانت أهم بالنسبة إلي ذات يوم، تنظيم التجارة، الماضي الأسود للحاج عامر، بل تناسيت غضبي من " سعيد" وقلت له:

" سعيد ألا ترى علاقة بين مكاشفة والدتي إيانا البارحة بخطبة "أمال"، ووصف " خليفة" القضية بأنها ميئوس منها؟"

" يمكن، أحقا رفضت التنقل؟"

" التنقل يا صديقي كان إجراء تمثيليا فحسب "

في هذه الأثناء وفد الشيخ الغوثي على المتجر:

" أهلا عمي الشيخ"

" أهلا"

ووجه خطابه الي:

" هل بلغك مظروف مرسل من ابن الأخضر؟"

" أجل"

" احتفظ به"

وبمرارة صارحت " سعيد" فور انصراف الشيخ الغوثي:

" أتدري ما بالمظروف يا سعيد؟"

"أبدا"

" أحزمة من العملات النقدية الفرنسية المهربة، عملتنا ـ حسب القوانين المصرفية ـ أكثر قيمة منها، وبمتجر الشيخ الغوثي تباع أربعمائة في المائة"

وللمرة الأولى ينصحني " سعيد " بالحفاظ على " الخبزة"، واجتناب إثارة الحساسيات والقلاقل.

أجل " الخبزة"؛ ذات يوم عقلت لسان العم " مومن" عن كشف معايب حياة حاج عامر، وهي اليوم ترغمني على انتهاج سلوكات منافية لقناعتي، وسألت "سعيد":

" أليست هذه النصائح مجرد مسكنات، تمنح الفئران فرص الانهماك في تصديع الجدار؟"

" دع حقائقك تختمر"

وصحت حانقا:

" إنها مختمرة والفرصة مواتية"

" الحقائق وحدها تجبر المزيفين على الخضوع"

" لا أريد إخضاع أحد"

" تريد انتقاما إذن؟"

" انتقاما لشرف قناعتي"

" قناعة منفردة"

وتنهدت:

" ربما "

وعاودني التفكير؛ خطئي الوحيد فيما أعتقد، إني انتظر من الجميع أن يصير على شاكلتي، أن يستشرف الحياة من خلال المنظار الذي بحوزتي.

وزرت والدتي في هذه الأثناء بحجرتها الخاصة، فاحتفظت بتجهمها في وجهي، وقبّلتُ رأسها في استعطاف متناه.

" خليفة" تحرك في وقاره المعهود، مشيرا عليّ بالتوقف إلى جانب الوصيد الحديدي ذي الدفتين اللاّمعتي الطلاء.

السيارة توقفت.

أقفز من مقعدي الأمامي، في رفق وفي رفق ينزل " خليفة"، وتتبعه " أمال"، نهاية هزيمة يرسمان، بداية هزيمة.

تأبطتُ الحقائب في طريقي إلى الوصيد أقفو أثرهما، وقد اتجها صوب المنزل شبه متعانقين.

لم تلتفت "أمال" كما توقعت ولا التفت " خليفة"، الطيف أخذ يتمطط في حركية بهلوانية عجيبة، لم يمت بموت البسمة، كل ما في الأمر أنه أدمن على الحياة.

" حيــاة!"

الطريقان يتوازيان، يختلفان في العمق يتساويان في الالتواء في الصعوبة، يتداخلان أحيانا يفترقان شيئا فشيئا، ليمتزجا من جديد في صيرورة متناقضة غير متناهية.

(انتهى)

هوامش: (1)

(1) بودربالة: الدربالة لغة، تعني في اللهجة العامية الأسمال البالية، وبودربالة كنية تطلق على الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يُلقب في التراث المغاربي بالشيخ بوعلام الجيلاني، وغالبا ما تستبدل النون لاما لحنا فيقال (الجيلالي).

(2) مثل شعبي يقال عند مشاهدة أمر مستحدث

(3) بمعنى لم يفق من نومه إلا بعد أن أصبح الجميع في الشارع يشاركون في شؤون الحياة. بمعزل عنه

(4) الضامة او الداما: هي لعبة تعتمد على الذكاء والبعض يشبهها بلعبة الشطرنج ولكنها مختلفة عنها تعود نشأتها ـ حسب بعض المصادر ـ إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

(5) الخبزة: كلمة في المعجم الشعبي تعبر اختصارا عن المعيشة (الدخل) و(الأجرة) مقابل العمل خصوصا. وقد أسماها الناظم الكبير عبد الرحمن المجدوب(النقبة)، وهي للطائر بمثابة (اللقمة) للإنسان قال:

"النَّقْبَة تْجِيبْ الطِّيرْ   مَنْ بَابْ سُوسْ لْتَازَة "

(6) هو أبو البقاء الرندي الأندلسي، من أبناء" رندة" بالأندلس وإليها نسبته، عاصر فتن بلاده واضطراباتها وسقوط العديد من حواضرها، فاشتهر بقصيدة نظمها في مرثاتها ومطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان

(7) أي أن العبرة بالمال أو المكاسب المادية التي عادوا بهما، وليس بطول المدة التي قضوها غائبين.

(8) إشارة إلى النبوغ المبكر. فخروف الماس (الغالي السعر) تظهر خصائص تميّزه وهو لايزال في الربق صغيرا (طور الحضانة)، قبل أن يكبر ويخرج إلى المرعى. ويصير كبشا.

(9) (سورة يوسف الآية 41)

(10) من مأثورات الكاتب الفرنسي الكبير" فولتير" أنه قال: " إذا أردت أن تخاطبني فعليك أن تحدد مصطلحاتك "

(11) ابنة الخس (بضم الخاء): من حكيمات العرب في الجاهلية، اشتهرت بالحكمة من خلال أسجاع كثيرة وحكم وأمثال، (للتوسع ينظر التهميش الذي أوردناه بخصوصها في مجموعتنا القصصية " هندسة الإغواء" / ط 2013)

لكن لعل الأمر يتعلق بامرأتين حملتا هذا الاسم، إحداهما بالمشرق والثانية بالمغرب العربيين وخصوصا بالمغرب الأوسط " الجزائر حاليا"، حيث تنسب إليها قلاع (القور) بضواحي بلدة بريزينة (البيض)، فضلا عن الحكم والأمثال المنسوبة إليها بالعامية الجزائرية، وقد تكون ابنة الخس المغاربية هذه امرأة هلالية لقبت بهذا

الاسم لأنها كانت تشبه ابنة الخس الأولى، للمزيد يُنظر أيضا البحاثة الفرنسي (روني باسي) في المجلة الأسيوية ".

(12) أهزوجة شعبية نسائية، تردد في الأفراح والمناسبات بمناطق الجنوب الغربي من الجزائر، تعدد مفاخر وانتصارات جيش التحرير الجزائري ضد الجيش الفرنسي المحتل.

(13) "لالّة" بتشديد اللام الثانية تعني السيدة، أو العالية المقام، أو الشريفة (لالّة خديجة ــ لالة مغنية ــ لالة فاطمة نسومرــ لالة أم كلثوم دفينة عسلة وهي امرأة صالحة، إلخ)، وذهب بعضهم اجتهادا إلى أن أصل لالة هو (ليلى) وهي إحدى معبودات العرب القدامى، لكن الملاحظ أن كلمة "لالة" تشيع في الأوساط الأمازيغية أكثر من غيرها، مع العلم أن الكلمة أخذت تتراجع أمام وعي الأجيال النسائية الجديدة المتعلمة، فحلت محلها تدريجيا كلمة حميمية وهي (أمي)، تقال لوالدة الزوج بدل الكلمة السلطوية "لالة" هذا، وكنا قد جئنا بإشارة مختصرة حول مدلول هذه الكلمة اجتهادا في هوامش روايتنا " ما وراء الخط الأخر/ ط2017"

(14) (سورة مريم الآية 59)

(15) مأثور عن الكاتب الفرنسي " بول فاليري"

(16) (سورة هود الآية 81)

(17) صدْر بيت للشاعر اللبناني المهجري إيليا أبي ماضي، وتكملته:

((فكل امرء يا صاحي غايته الردى))

() (اقتصر التنقيح على بضع كلمات كانت إما بمثابة أخطاء مطبعية أو بها قصور في أداء المعنى، أما الزيادة فتتمثل في هذه الهوامش المكوّنة من 17 إشارة توضيحية لا غير بطيعة).



نبذة عن المسار الثقافي للمؤلف:

محمد حيدار من مواليد 1952/02/15 بعسلة ولاية النعامة متقاعد من قطاع الثقافة، مقيم بمدينـة سعيدة (الجزائر).

صـدرت لــه حتــى الآن مجموعتــان قصصــيتان همــا:" خلــف الأشــعة"(1984) عــن المؤسســة الوطنيــة للكتــاب، و" هندســة الاغــواء"(2013) عــن المؤسســة الوطنيــة للفنــون المطبعيــة، وأربــع روايــات هــي " الأنفــاس الاخيــرة"(1985) عــن المؤسســة الوطنيــة للكتــاب، " الرحيــل إلــى أروى" (2005) عــن المؤسســة الوطنيــة للفنــون المطبعيــة، "دمــوع الــنغم" (2007) عــن مطــابع الجــيش فــي نطــاق الجزائــر عاصــمة الثقافة العربية، "ما وراء الخط الأخر"(2017) صدرت عن دار المثقف.

سـبق لــه أن شــارك فــي تــآليف جماعيــة لعــدة مؤلفــات أصــدرتها مديريــة الثقافــة بولايــة ســعيدة مــن أبرزهــا" ســعيدة معــالم وأعــلام" و" ســعيدة معــالم وفنــون" وقــام بمراجعــة دواويــن شــعرية قبــل طبعهــا، معظمهــا فــي الشــعر الشــعبي. وكــذا مؤلفــات فــي تــاريخ الثورة. إلخ

وقبلها نشر سلسلة من الدراسات السياسية ـ الثقافية بالصحافة الوطنية خصوصا جريدة الجمهورية الجهوية إلى غاية 1990 كان أهمها حلقات " المخضرم "، كما تلقى النادي الأدبي لتلك الجريدة إبداعاته باستمرار أيام كان يشرف عليه الراحل أبو القاسم بن عبد الله.

نالـت قصـته " العبـور خـارج دائـرة الـزمن" الجـائزة الأولـى فـي مسـابقة عيـد الثـورة التـي نظمتهــا جريــدة الجمهوريــة (1984)، كمــا فــازت قصــته "شــعائر الــدخول إلــى أديــرة الألــوان" بالجــائزة الوطنيــة الأولــى فــي مســابقة أدب الثــورة التــي نظمتهــا وزارة الثقافــة والاتصــال عــام 2001 فــي القصــة القصــيرة. صــدر لــه فــي عــام 2016 عــن دار الشــهاب، كتــاب تــاريخي بعنــوان " الإفريقــي صــانع ملحمــة فــزوز ورجــال وجبــال"، وللكاتــب روايات ودواوين شعرية، وإسهامات أدبية وتاريخية أخرى بعضها تحت الطبع.

"

"